

رحلات ابن عطوط

محمود السعدني



الأهرام
مركز الأهرام
للترجمة والنشر

رحلات ابن عبطوطه

محمود السعدني

الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يوان

المحتويات

- وعلى كل لون ٥
- ياعيني على طنجة ! ١٥
- نهاية التيوس ! ٢٥
- وأبو زيد قال لدياب ٣٥
- الأرض الخراب ٤٢
- والكفاح دّوار ! ٥٠
- بتوع الفريكيكو ! ٥٩
- وإن طال السفر ٦٥

- آلة الزمن ٧٣
- الشيخ لعبوط ٨٠
- الأرض بتتكلم .. هندی ! ٨٧
- فجأة الذى ... فجأة ! ٩٣
- آك سورى إكوانى ! ١٠٠
- والداخل مفقود ! ١٠٧
- على أبواب بابل ! ١١٤
- أوطان الآخرين ! ١٢٣

وعلى كل لوت

رحمة الله وبركاته على عمنا القديم ابن بطوطة ، كان هو الآخر صحفيا ، وإن كان ليس عضواً بنقابة الصحفيين فلم يكن في زمانه صحافة ولا يحزنون ، كان الشاعر هو الصحفي ، وكانت غاية الشعر هي مدح الملوك والخلفاء والولاة وعساكر المرور ! .

وكان الشاعر الذي يرفع قصيدة جيدة من نوع (وسمعا بالعشارى اذا ذهبنا ، بأرض الله فى كل زمان) يحصل على مكافأة تساوى الهبة التى هبها توفيق عبد الحى من بيع اللحوم الفاسدة والكتاكيت الميتة ..

ولكن عمنا ابن بطوطة لسوء حظه لم يكن شاعرا ، كان شديد الملاحظة ، عظيم الصياغة ، شديد الاهتمام بالناس وبالحياة ، شديد الشوق للبلاد والعباد ، وكان متوقد الذكاء وصاحب مفهومية يفهم الأشياء وهى طائيرة وأحيانا قبل أن تطير ! .

ولكن اسم ابن بطوطة كان عيبه ، فبطوطة من البط ، والبط طائر لا يطير ، شديد الكسل ، شديد الوحش ، غاية رحلته لفة ، فى بحيرة ، أو نزهة فى بركة أو بلبطة فى ترعة - حسب الأحوال والتساهيل ..

والست والدتنا - الله يرحمها - كانت تصرخ دائما فى وجهى : « والنبي تقعد كده وتنبط » .

ورواد قهوة المعلم حسن عوف فى الجيزة يقولون من باب الحكمة : « مش فلان اتببط » ، يعنى انكسر ، يعنى ضاع فى الكازوزة .. يعنى اتخرب بيته ياولداه !! .

المهم أن ابن بطوطة لم يكن اسما على مسمى ؛ ولذلك أنا رأيت بعد كل هذا العمر الطويل أن أصحح هذا الخطأ الرهيب ، وأطلقت على نفسى لقب ابن عطوطة على وزن ابن بطوطة باعتبار أن كلا منا له رحلات وجولات وسفريات على اختلاف المكان والزمان ..

أنا إذن ابن عطوطة ، وهو من العط . والانسان يعط حتى يزهد ، وأحيانا يعط حتى يغمى عليه ، وبعض الناس تعط وتعط حتى تضيع ..

وزعيم العطاطين فى العالم العربى كان عمنا زكريا الحجاوى ، وكان يعط من شارع إلى شارع ومن قهوة بلدى إلى قهوة أفرنجى ، ومن قهوة بهوات إلى قهوة مجاذيب ، ومن كفر إلى نجع ، إلى ضيعة ، إلى بلد ، إلى شاطئ ، إلى رصيف ، ثم انتهى به المطاف إلى أن ذهب وعط فى الدوحة وداح هناك السبع دوحات .. ومات غريبا .. ياكبدي !! .

وتولى إمارة العط من بعده عمنا عبد الرحمن الخميسى وهو رجل عطاط من قبائل عطيط ، وهى قبائل احترفت العط فى أرجاء الامبراطورية أيام مجد العرب والعروبة والسحابة التى كانت تمطر فى كل مكان فيعوط خراجها إلى خزائن الخليفة . وفى النهاية استقر عمنا عبد الرحمن الخميسى فى موسكو .. ومات غريبا هو الآخر .. وامصيتناه !! .

وهناك سبب آخر جعلنى أطلق على نفسى لقب ابن عطوطة وهو أن الست والدتنا - الله يرحمها - كانت تقول : « ماتهمد بقى يابنى وكفاية عط » . كما أن صديقى فتحى بحيرى كان يزفر زفرات ساخنة ويقول : « لو ربنا يتوب علينا بقى من العط » . وكان فتحى ضجرا من كثرة الانتقال من مهنة إلى مهنة ومن سيوبة إلى سيوبة ، ومن شغلانة إلى أخرى ، وكان يرجو لو يستقر مرة واحدة فى حياته ويستريح ، وقد استخدم كلمة العط هنا فى معنى الدوخة التى .. (إلهى مايحكم بها على عدو أو حبيب) ! .

هذه إذن هى المصادر التاريخية لكلمة العط ولكنها كلها مصادر غير رسمية ، وإن كان بعضها مدونا فى كتب سيد أبو ذراع (وهو فنان شعبى غير محمد أبو ذراع) ، وكانت له أغنية مشهورة منذ نصف قرن من الزمان :

ياللى انكتب عليك العط
اصبر دا الرب مش ناسى

أما المصادر الرسمية لكلمة العط ، فقد أحجمت عن الخوض فيها خوفا من وجع الدماغ ، ولكنى توكلت على الله وفتحت قاموس ابن مهروش الزلبانى (وهو عالم حجة فى اللغة والنحو) ، ويقول ابن مهروش فى باب عط : « العط من العطوط ، وتجمع عطاطيط ، ويقال عط فلان أى ترنج وكاد يميل ، ويقال شجرة عطاطة أى رقيقة الأغصان هشة الأوراق تثن تحت نسمات الريح وتميل » .

يقول الشاعر الجاهلى :

عططت لما ابتلانى الدهر من نكد
ورحت أمشى على درب من الهرد

أى أنه من شدة الهم والغم كان يمشى فيميل ، كأنه يسير فى شارع من شوارع

الجيزة التى امتلأت بالمطبات والحفر بالرغم من تصريح المحافظ بأن كل شوارع الجيزة كالشعر الحرير على العينين يهفّف ويرجع يطير ! .

وفى لسان العرب لعنّا ابن منظور : « العط هو غابوق البن من الخمر ، وسمى عط لأن من شربه مال وترنج » .

ويقول الشاعر الجاهلى حمزة الجيزاوى :

عططنا فدخلنا فاسقنى من عطك المدهون

وهو بيت من قصيدة يعتبرها البعض من المعلقات لأنها وجدت معلقة على شبّاك مديرية الأمن بمحافظة الشرقية . وقيل إنه كتبها بعد علة محترمة أكلها الشاعر حمزة الجيزاوى بعد قضية سرقة بالإكراه ارتكبها الشاعر واستخدم فيها مطواة قرن غزال .

ولكن الدكتور لويس عوض أكد عندما سألته أن كلمة عط أصلها لاتينى وهى فى الأصل أَلط : ALT وحرّقها العامة إلى علط ، ثم أصبحت عط بمرور الزمان . وهى أيضا وردت فى أغلب الأعمال الأدبية العظيمة على مر التاريخ (هذا كلام الدكتور) ، فالعراف الأعمى ترسييس وقف يصرخ بالصوت الحيانى أمام الملك الجبار ويقول : لقد حفيت قدماى من كثرة الألط ، أى من كثرة العط ، أى من كثرة المشى ، إذ لم يكن هناك أتوبيسات فى ذلك الزمان ! . والعبرى شكسبير أبرز الكلمة فى عبقرية متناهية فى شخصية مسرحية شهيرة هى شخصية عطيل . وإذا نظرنا إلى الكلمة - هكذا يقول الدكتور - اكتشفنا أنها تتكون من مقطعين : عط و يل ، ولكن شكسبير كان يقصد بها عط فقط وأضاف إليها بقية الكلمة هربا من المحاكم ، فقد كانت أسرة عط لا تزال تعيش فى قرية جاكسا من أعمال مدينة طنجة على شاطئ المضيق ! .

ويقول الناقد الانجليزى الشهير هابين كوربص (والكلام للدكتور لويس) : إن شكسبير أراد أن يفسر الشخصية ويحلّها ، فعطيل رجل عطاء مغربى

كذاب يفتح الكتاب ، عط من بلاده إلى بلاد الأعراب وذهب في العط إلى بعيد فأحب ديدمونة وعط أكثر فذهب إلى قبرص وعط أكثر وأكثر فقتل ديدمونة ، بوشاية من ياجو الشيطان . إن نهايته المأساوية كانت نتيجة لعطه الذي ليس له غاية .

وهناك أيضا - الكلام للدكتور أيضا - الراهب عطا الله الذي راح يضرب في الأرض بلاغاية صارخا في الناس : استعدوا ليوم القيامة . وساح في الأرض عشرين عاما بدأها من فلورنسا إلى أنفلونزا ، إلى كلومانزا ، حتى استقر به الأمر أخيرا في بنى مزة ، وهو الاسم اللاتيني لما يعرف الآن ببنى مزار . وأثناء عطه في أنحاء الصعيد الجوانى دخلت في قدمه شوكة فتقرحت قدمه وتقيحت ، ومات ميتة الأبطال ! وسمى عطا الله لأنه كان يعط في الأرض باسم الله .

ولكن المجمع اللغوى المصرى لا يوافق على رأى الدكتور لويس عوض ويقول فى نشرته السنوية : إن كلمة عط كلمة عربية استخدمتها قبيلة فزارة أيام الجاهلية وجاءت على لسان شيخها « نحن قوم اذا عططنا لا نميل » ، أى أنهم شديرو البأس ، أقوياء الشكيمة ومهما بلغ العط فأنهم لا يتعبون . وعن حجاج ابن مزجج عن زوابة بن مشلح عن أشجع بن وهذان المخزومى أن شيخ قبيلة فزارة قال : خرجنا فى ليلة قمرية إلى وادى العقيق ، فمر بنا عرجون بن مستلف الزمان وكان معه غلام يقال له أعط ، فدعوناها للنزول فأقبل الغلام وابطأ عرجون بن مستلف الزمان ، فقلنا للغلام : ويحك ما يحبس مولاك ؟ قال : كان عند صاحبه فى مكان يقال له الخنفار ، فأكل القسب (التمر اليابس) والجلجلان (نبات مالح) ويبدو أن سيدى أكل كثيرا فأصابه العط . فسألناه : وما هو العط ؟ (وكان الغلام يتكلم بلغة أهل حمير) فقال : العط يقع للانسان عندما ينهد منه الحيل وتتشخّش منه الركبتان ، فيقال على الرجل الذى ألم به هذا العارض رجل عط ، فاذا أمعن المرض فيه واستفحل قيل رجل معطوط ، ويقال للرجل العطاط اذا كان ثقيلًا يخافه الناس وينفرون من لقائه ، ورجل عططاط للكريم السخى ..

قال الأمهر بن مشهور فى مدح حاتم الطائى :

وعطعاط بأعلى حديدة إذا نصبت لم تضرب الحد بالنصب

طعمنا على سغب فيدعى بالقرى لعطعاط أدام الطعم من سغب !

هذه إذن هى مصادر العط ، عرضناها عليكم كما عرفناها ، وحرصنا على أن نذكر كل المصادر ، شعبية ورسمية وأكاديمية وكلاسيكية ، وعلى كل لون ، ونستطيع الآن أن نبدأ رحلتنا ، رحلة العط التى ابتلانا بها الله وأخذت من جلودنا راقات ، ومن أعمارنا سنوات وسنوات ، ولكن قبل أن نبدأ رحلتنا هناك ملاحظة لابد من إثباتها هنا ، حتى لا يظلمنا قارئ أو يفترى علينا ناقد . فالفرق بين رحلة ابن بطوطة ، ورحلة العبد لله ، هو الفرق فى الزمان وفى المكان أيضا .

عندما بدأ عمنا ابن بطوطة رحلته الميمونة على صهوة بغل ، كان الوطن العربى يسترخى فى هدوء ، الحدود سداح مداح والبساط أحمدى ، والمزاج رايق والرءوس مرفوعة والأعلام أيضا ، والظهور مشرعة والسيوف أيضا . وكان أمير المؤمنين يعطس فى القاهرة فيقول له من فى الدار البيضاء يرحمكم الله . وكان العربى يسافر فى أرجاء الامبراطورية بلاد الله لخلق الله ، فلا حدود ولا جوازات ولا جمارك بالمصرى أو كمارك بالعراقى ، أو مكوس كما يسميها البعض فى بلاد بنى عدنان . وكان السفر فى بلاد العرب على أيام عمنا ابن بطوطة أعزب ليس له جواز . ولم تكن هناك تأشيرة خروج ، ولا تأشيرة دخول ، ولا إذن عمل . وكان الدينار العربى يساوى عشرة دولارات هندی ، باعتبار أن الهنود الحمر كانوا هم أصحاب الدولار فى ذلك الزمان ! كان هذا هو حال العرب فى زمن عمنا ابن بطوطة ..

أما الآن فى زمن العبد لله .. فلا حول ولا قوة إلا بالله . الجمارك فى كل مكان من بلاد العرب لاتنقض إلا على العربى ، ولا تفتش إلا من يبدو من

سحنته أنه من نسل قحطان ! وصاحب الشرطة فى بلاد العرب الجديدة لا يقتفى إلا أثر العرب الأعراب ، ولن تجد فى سجون العرب أحدا من صنف الألمان أو الطليان ، فما بالك بصنف الانجليز أو الأمريكان ؟ .

ستجد مصريا مسجوننا فى سجن العراق ، وعراقيا مسجوننا فى سجن سوريا ، وسوريا مسجوننا فى سجن الخليج ، ومغربيا مسجوننا فى سجن ليبيا ، وليبيا مسجوننا فى سجن تونس ، وفلسطينيا مسجوننا فى كل السجون ! .

وإذا كان عمنا ابن بطوطة قد خرج على ظهر بغلته من طنجة إلى تلمسان بالجزائر ، ومن تلمسان إلى صفاقس بتونس ، ومن صفاقس إلى برقة فى ليبيا ، ومن برقة إلى الاسكندرية فى بر مصر ، وقد قطع المسافة كلها على ظهر البغلة ، فلم يتوقف إلا لينام ولم يتمهل إلا ليسترىح .. إذا كان عمنا ابن بطوطة ، قد قطع المسافة كلها آخر راحة وآخر انسجام ، فالسفر من القاهرة إلى ليبيا اليوم محنة ولا محنة الحسين ابن على فى يوم كربلاء .

ومع أن الجغرافيا تقول إن مصر وليبيا دولتان متجاورتان ، إلا أن الجغرافيا السياسية تفرض على العبد لله إذا أراد السفر إلى ليبيا ، أن ينتقل أولا من القاهرة إلى اليونان ، وكل انسان حر يركب الطائرة أو يركب البحر . فإذا ركب الطائرة فقد يخطفه زعيم منظمة برمهاة الأصفر ، وسر الخطف أنه زعلان مقهور ويشعر بإحباط ويقصد الحياة الزوجية ، ولكنه يريد أن ينتقم من أجل كامب ديفيد . ولا يمكن القضاء على كامب ديفيد ، إلا بنبح عشرة صعايدة ، وإحراق جثث خمسة جدعان من المنوفية ، وخنق امرأة وطفلها من بنى سويف . ولذلك فخطف الطائرة وإحراقها هو واجب قومى ، وهو نضال يستوعب هموم الأمة ، ويصوغها ثم يعيدها إليها حتى لا تصبح عصية عن استيعاب هموم المرحلة !! ولكى يظل الحل مؤجلا حتى يتم العثور على حل عن طريق الثورة المستمرة لهذا المأزق التاريخى العصيب ! وحتى إذا وصلت الطائرة إلى اليونان فسيأخذ الطائرة إلى طرابلس . وسيعلم الله وحده ما الذى سيحدث له أثناء التفتيش فى الجمارك والمكوس ، وزمان ذهب عمنا ابن

بطوطة إلى الخليج ، وقطعه ذهابا وإيابا ، ولا سؤال ولا جواب ، ولا تحقيق ولا تفتيش ، ولكن الآن .. فى زمن العبد لله ، يحتاج المسافر إلى الخليج إلى (كفيل) ! وزمان كان الكفيل للقاصر واليتيم ، أما اليوم فى زمن العبد لله ، فهو للصحفى والمستشار والطبيب . دليل على أن أولاد يعرب قد صاروا فى هذا الزمان يتامى ومشردين ! .

لشد ماتغيرت الأحوال منذ عهد عمنا ابن بطوطة ، إلى عهد أخيكم ابن عطوطة ، الذى داخ مثل عمنا زكريا الحجاوى السبع دوخات ، ولذلك ستكون رحلة ابن عطوطة على مقاس التأشيرات التى حصلنا عليها ، وإذن العمل الذى سمح لنا به ، ولأننا انشغلنا أثناء الرحلة فى العثور على تأشيرة والبحث عن كفيل ، ولأن أغلب وقتنا ضاع بين الجمارك والجوازات وشرطة الحدود ولم يبق إلا أقله للكتابة .

وفى أيام عمنا ابن بطوطة لم يكن يصدع دماغه شيء ، فلم تكن قد نشأت بعد إذاعة صوت العرب ، ولا إذاعة صوت العروبة ، ولا إذاعة حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولم يكن حزب البعث المشتركى قد اهتم بالمشكلات الكثيرة ، التى تتعلق بالمفاهيم والمصطلحات المستخدمة فى التعبير عن إطار ومضمون المصالح الحيوية الحقيقية ، بقدر الاهتمام الزائد والملحوظ بهذه التقاليد التى اقترنت بهذا التفكير الواعد بأمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة !! ...

ويالى انكتب عليك العط
اصبر دا الرب مش ناسى

ولم يكن فى زمن عمنا ابن بطوطة قد تم طبع الكتاب الأخضر المسخسج حيث الشمولية الكونية التى تبدأ وتنداح وتترحرح وتوسع على ثلاث مراحل : عربيا فى البداية ، إسلاميا بعد ذلك ، كونيا فى النهاية ..

ويا للى انكتب عليك العط

اصبر دا الرب مش ناسى

ولم تكن اتفاقيات كامب ديفيد قد عرفت طريقها الى الحياة بعد ، والسبب أن ديفيد نفسه لم يكن له وجود ، كان ديفيد فى زمن عمنا ابن بطوطة يشتغل فى اصطبلات مولانا السلطان ، وكان ميمون اليهودى يشتغل طبيبا فى قصر السلطان ، كان اليهودى مجرد مواطن فى الإمبراطورية العربية ، يشكر ربه اثناء الليل وأطراف النهار لوجوده فى بلاد العرب بعيدا عن أوروبا ، حيث محاكم التفتيش وأفران حرق البشر عمال على بطل . فى ذلك الزمان البعيد السعيد لم يكن فى بلاد العرب ألف تنظيم وتنظيم ، وكلها تهدد وتتوعد ، وتعد بالتحريض والتعمير ، وينتهى أمرها جميعا ، الى اغتيال صحافى فى روما ، وتلميذ فى لندن ، وصايع فى اليونان ، أما التحرير فستجد تحريرا كثيرا فى صحف النضال التى تصدر فى الخارج ، أما التعمير فما أحلى التعمير والتعميرة على أى رصيف فى وطننا السعيد ومن شاطئء الخليج إلى شاطئء المحيط ..

ويا للى انكتب عليك العط

اصبر دا الرب مش ناسى

ولم يكن فى زمن عمنا ابن بطوطة أفلام من إنتاج على حبلىص ، ولا فوازير من إخراج سعد أبو كتاف ، ولا مطربون كهؤلاء الذين سدوا علينا عين الشمس فى هذا الزمان . ولم يكن فى بلاد العرب أيام عمنا ابن بطوطة شركات من نوع منوفكو ، وعبد العاطكو ، وعبد العزيزكو . وكان الفلاحون فى زمانه ، انتاجهم وفير وخيرهم كثير ، وموائدهم ممدودة للعابر وابن السبيل . وقد لاحظ عمنا ابن بطوطة هذا الأمر ، فدون فى رحلاته يقول : والمسافر فى بر مصر لا يحتاج الى حمل زواده معه ، لأن خير الریف وفير ومبذول وعلى طول الطريق . الآن صارت فراخ الفلاحين هى فراخ الجمعية ، وسمن الفلاحين

هى السمن الهولندى ، وعيش الفلاحين يخبز فى الفرن الأفرنجى ...
وياأسفاه على الفرق الرهيب بين زمان العبد لله ، وزمان عمنا ابن بطوطة !.
كان أبطالنا فى زمانه ، من نوع المظفر قطز ، والظاهر بيبرس ، والناصر
صلاح الدين ، واليوم صار أبطالنا الساحر الخطيب ، والنجم محمود يس ،
والسيد العقيد ، والأخ المناضل ، والمجاهد الأكبر ، وطويل العمر .
أسماء وألقاب ، ونياشين ورتب وسيوف وصولجانات .. وهلمة ..

وياالى انكتب عليك العط
اصبر دا الرب مش ناسى

ولأنه ، سبحانه مش ناسى ، أسأله اللهم أن يكفيننا شر العط ، وأن يبعد عنا
المخبرين والبصاصيين ، وأن ينقذنا من شر العسس والناس اللبط ، وأن يحفظنا
من شر أولاد الحرام وأولاد الحلال أيضا ، وأن يشملنا بعطفه ورحمته حتى
نجوب كل بلاد ولد عدنان .. أمين يارب العالمين .

يا عيني على طنجة !

رحلة العبد لله بدأت في قلب العواصف، كانت قمم الجبال في الجزائر تشتعل بالنار، وكان الملك محمد الخامس عائداً لتوه من المنفى، وتونس على عتبة عصر الاستقلال، وكانت شعارات القومية مرفوعة، ورايات الثورة خفاقة، وطبولها تدق في كل مكان.

ولقد بدأت رحلتى من القاهرة إلى روما، ومن روما إلى مدريد، ومن مدريد إلى طنجة، لأنه كان صعباً علينا نحن العرب أن نخترق أرض العرب، ففي ليبيا كانت هناك ثلاثة جيوش أجنبية: انجليزية وفرنسية وأمريكية، والحدود بين مصر وليبيا مقفولة وفي ليبيا خائن اسمه المشلح، أو المشلح، أو الشلحاوى، يشرف على بناء سور مثل سور برلين يعزل مصر عن ليبيا ؟ وكان دخول ليبيا بالنسبة للمصرى أصعب من دخول إبليس الجنة، وكان على العبد لله إذا أراد الذهاب إلى المغرب أن يمر عبر أوروبا... وهكذا كان. وانتظرت شهراً في مدريد للحصول على تأشيرة دخول للمغرب، وكنت

محظوظاً لأننى كنت أول بنى آدم فى العالم يحصل على التأشيرة رقم ١ لأول حكومة بعد الاستقلال فى المغرب، وطرت فى الليل من مدريد على متن طائرة أسبانية، طائرة مبطوحة ومجروحة وكما لعبة الأطفال، راحت تتأرجح وتتمرجح، وخيل إلى وأنا فى الجو اتشقلب واتمقلب، أننى اخطأت التقدير، وبدلاً من أن أركب طائرة بمحرك واحد ركبت طائرة بجناح واحد، ولولا العيب والفضيحة لو قفت وسط الطائرة ألطم الخدود وأشق الجيوب على طريقة ستات الجاهلية! المهم.. نزلنا طنجة فى الليل وخرجنا من المطار سهلة، فلا تأشيرة ولا تكديرة، فقد كانت طنجة مفندقة، وأبوابها مفتوحة على جهنم الحمراء، وفيها سبع حكومات وسبعة حكام، وخمسون ألف عربى ومائة ألف أجنبى كلهم جواسيس! وفى طنجة مائة نوع من العملة، وعشر لغات، والكل فرحان وسعيد وقابض ومسرور، إلا صنف العرب.. آخر فقر وآخر بهدلة! عندما ذهبت إلى فندق المنزه على شاطئ المضيق، نظر موظف الفندق الى العبد لله باحتقار، وقال: لا توجد أماكن هنا، وعندما بدا على سحتى أننى لم أفهم، أعاد على الكلمات بغلظة، فلما كلمته بالانجليزية انحنى كرقم ٦، وضرب تعظيم سلام، وقال: عفواً سيدى ظننتك من أهل البلاد، وخصص لى غرفة فاخرة على البحر، وحمل حقائبى بنفسه الى الغرفة.

كانت طنجة تضيق بكل البضائع من كل أنحاء الأرض، وكانت تموج بكل الأصناف والأشكال من صنف البنى آدمين، فقد كانت طنجة دولية.. لا قانون ولا أخلاق ولا تقاليد، المهم الربح من أى طريق وعن أى طريق! قادنى ولد هندى فى اليوم التالى وسار بى عبر حارات وأزقة ومسالك، ودخلنا من باب سميك وهبطنا بضع درجات تحت الأرض، ووصلنا إلى سرداب شاهدت فيه عدة أشخاص، كانوا فيما مضى من صنف البنى آدمين، والكل مسطول ومنسجم وشارد مع أحلامه أو مع أوهامه، وحلقات الدخان فوق الرؤوس تنعقد وتنفرط، آخر سعادة وآخر ضياع، وجلست مع القوم وهم يدخنون (الكيف)، اتفرج على الوجوه المجدورة والأيدى المعروفة، وخيبة الأمل التى تركب

جمل، وللأسف كل الرواد كانوا من صنف العرب، ولكن صاحب الماخور
خواجة من بلاد البرتغال، وخدم الماخور من بلاد الهند، والحشيش تركى
ولبنانى وهندى ومغربى! وعلى شاطئ طنجة رأيت أجمل نسوان الأرض،
يعرضن على المكشوف وعلى المفتوح، وكل شيء ظاهر وبائى وعلى عينك
يا تاجر، والست الحشمة تغطى نفسها بطابع بريد، والشاطئ نفسه كالجنة،
ورود نابئة من الأرض وورود ماشية على الأرض، وفلوس كموج البحر تأتى
وتروح، وأطعمة تلقى للأسماك تكفى سكان الصومال، وخمور تراق على
الأرض كأنها أمطار الصيف فى السودان، وكل العرايا على الشاطئ
خواجهات، وكل الخدامين عرب مغاربة، والكل يرطن بلسان واحد، بفعل
الاستعمار فقد العرب لسانهم وتكلموا بلسان الأعداء !.

كانت طنجة بحق - أيام حكم الخواجهات - هى بلد التجارة والدعارة، ولكن
الجاسوسية كانت أربح تجارة على الإطلاق. وكان معى فى الطائرة التى أقلتني
إلى طنجة ولد مصرى صميم، مغامر وعلى موعد مع الموت فى كل لحظة،
قلبه ميت لا يعرف الخوف، وكان عين مصر فى شمال إفريقيا، وكان هو
الجسر بين الثورة المصرية والثورة الجزائرية، الولد اسمه عبد المنعم
النجار، وكانت وظيفته الرسمية، ملحق مصر العسكرى فى مدريد، وترقى
بعد ذلك فصار سفيراً لمصر فى باريس، ثم سفيراً لمصر فى بغداد، وأعتقد أنه
يعيش فى مصر على المعاش.. لقد طواه النسيان ولعل هذا النسيان هو ثمن تلك
الأيام المجيدة العظيمة الماضية. وبسبب عبد المنعم النجار تبعنا منذ أول لحظة
عشرة جواسيس يعملون لحساب عشر جهات، وحذرنى عبد المنعم النجار
طالما أنا فى طنجة، فالكلام ممنوع، والذهاب إلى مجاهل طنجة ممنوع،
والحديث مع الغرباء ممنوع، لأن النجار نفسه جاء إلى طنجة فى مهمة من
أجل الثورة العربية فى الجزائر: كان فى طريقه لشراء أجهزة لاسلكية تحتاجها
الثورة، وكل شيء حاضر، الفلوس حاضرة والأجهزة موجودة، ولكن البائع
الإيطالى رفض تسلم الثمن بالبيزتا الأسباني، وأصر على أن يتقاضى الثمن
بالدولار، ولذلك دخنا دوخة الأرملة العجوز ونحن نحول البيزئات إلى

دولارات، وجاء مندوب الثورة وحمل الأجهزة فى شاحنتين ومضى فى ظلام الليل إلى المجهول! وانتهت مهمة النجار وعاد الى مدريد، وبقيت وحدى وسط غابة الوحوش أحذر أن أتكلم، أحذر أن اتمشى، أحذر أن اتفرج، وأغلقت حجرتى على نفسى لأنجو من المعارك والمهالك، ولكن منظر مندوب ثورة الجزائر لم يفارقنى لحظة، اسمه الحركى إدريس، وهو أشبه ما يكون بقائد ألمانى عظيم، الرأس مخلوق تماماً، الملامح محددة فيها شيء من عنف المقاتل ورقة الفنان، صامت لا يتكلم كأنه لا يعرف ما هو الكلام، إذا سألته لا يجيب، لم أسمع صوته إلا مرة واحدة عندما ودعته على حدود طنجة، قلت له: قريباً نلتقى فى الجزائر، فهتف قائلاً: الله كريم! .

كانت معركة الجزائر هى أشرس معارك العرب ضد خواجهات أوروبا المتغطرسين، كانت بلاد العرب فى رأيهم هى مزرعة أوروبا.. لا تزيد! وكان جيش التحرير الجزائرى فى واقع الأمر، هو جيش الانتقام الذى قام ليثأر من سنوات الذل والجوع، ولم يجمع العرب فى تاريخهم الحديث على شيء قدر إجماعهم على ثورة الجزائر، ولم يلتف العرب حول شيء التقافهم حول ثورة الجزائر، وحظ العرب والجزائر أن الطقس كان مناسباً، والريح كانت مواتية! .

وإدريس ذهب إلى الجزائر، وأنا حبس فى الفندق لا أبرحه، فى انتظار من سوف يحضر ليصحبنى معه عبر صحراء وجدة إلى قمم الجبال حول تلمسان، وفجأة دق الباب وانخلع قلبى، فلم يكن هناك مفر من فتح الباب، واكتشفت أنه على الباب أنثى تحشر نفسها فى بنطلون، كان ذلك منذ ثلاثة وثلاثين عاماً ولم أكن قد رأيت بنطلوناً على ستات المشرق، وقالت الست المتبنطلة: « ألقى عندك لو كيد؟ » ، وقلت للست: أفندم؟ أعادت الست الكلمات نفسها بالحروف نفسها وباللكنة نفسها، قلت فى نفسى أعوذ بالله من شر الشيطان الرجيم، وأغلقت الباب ودخلت، ولكن لأن العبد لله مهذب فقد أغلقت الباب على نفسى، وعليها!! واستفسرت من الست واستفهمت حتى فهمت، فقد كانت تريد عود

(كبريت) كما يقولون في مصر، وعود (شخاط) كما يقولون في العراق، وعود (تقاب) كما قال عمنا ابن مالك صاحب الألفية التي عطلت لغة العرب وسجنتها في زنازة لها قضبان من ألف بيت من أسخف الشعر! وحكت الست قصتها، وهذأت وأطمأنت للعبد لله وسرت سروراً عظيماً عندما قلت لها: إننى تاجر باكستانى أبيع الخز والحريز، وأننى فى رحلة تجارة وشطارة عبر بلاد الله وخلق الله، وقالت البنت: أنا مغربية من طنجة، بدأت خادمة فى بيت أحد الطليان. وكان الولد الطليانى تاجراً وقاجراً، لأن تجارته كانت فى صنف الأعراض، والبنت الخدامة لأنها كانت مدورة ومكورة فقد وقع اختياره عليها لتقديمها كبضاعة جديدة فى الأسواق، وعندما حدث المرسوم والمعلوم، بكت البنت وشكت، وذهبت إلى حاكم طنجة الأسبانى، ولكنها اكتشفت أن الطليانى للأسبانى كالبنيان المرصوص يسند بعضه بعضاً، ومع أن البنت كانت قاصراً، فحادث من هذا النوع يعتبر جريمة حتى فى بلاد الطليان، ولكن ما دام الجانى خواجه والضحية عربية فلا بأس ولا جناح، فهكذا كانت الأحوال فى بلاد العرب منذ أكثر من ثلاثين عاماً من الزمان: أهل البلاد يستعبدون فى أرضهم، وصياع أوروبا هم أصحاب الأمر والنهى فى بلاد الأعراب.

هكذا كان الحال فى بلاد العرب قبل أن يولد قراء هذه السطور من الشباب، ولكن الحمد لله لأن المولى العزيز أنقذ الجيل الجديد من البلاوى التى عاصرها جيلى.. الذى أعتقد أنه أغلب جيل منذ الجيل الذى شهد دخول ابن عثمان وغزوه لبلاد العرب من حلب إلى صنعاء. ما علينا، فقد احتملنا كل المصائب وتجاوزنا كل العقبات وانتصرنا وانهزمنا، وعلى الجيل الجديد أن يواصل المهمة ليجعل الحياة أجمل مما كانت وأفضل مما كانت، هذا دوره الحقيقى، وما عداه مجرد خزعبلات!.

ويا ميت حلاوة على البنت المغربية، أحلى بنات الأمة العربية وأكثرهن رقة، وأقربهن إلى بنات لندن وحسناوات باريس، وفى عيون المغربية رغبة، وفى جسدها نتوءات واختناقات وانبعاجات، معمولة حسب مقاييس ومواصفات

وطبقاً لخطة موضوعة. وأنا - والحق أقول - أحببت المغربية من أول نظرة، ليست مغربية بالاسم أو بالرسم، لكنها المغربية على الإطلاق !.

ولقد تمنيت يوماً، أن أقضى السنوات الأخيرة من عمري في مدينة على شاطئ البحر الأبيض اسمها تطوان. والناس في تطوان خليط من أصل عربي وأسباني، وسبحان من جمع الشامي على المغربي فأنتج هذا العصير الخرافي من صنف النسوان! والبنت من دول إذا نزلت على الشاطئ ستري جلدتها مشدوداً، سبحان الذي أبدع، كأنه جلد طبله مشدود على وهج النار، فلا هبشة ولا خدشة، ولا عضه ولا رضة، ولا ترهلات ولا كرمشات. وليس الجسد وحده هو سر سحر المغربية، ولكنها الروح أيضاً، فما أشد جرأة المغربية وما أعظم تحررها، بالرغم من اختفاء الوجه أحياناً تحت الحجاب! والرجل المغربي ما أكرمه، في السلم فنان وفي الحرب ولا أسد جوعان، وفي حرب أكتوبر مثلاً ادعت إسرائيل أن الجنود المغاربة الذين كانوا يقاتلون على الجبهتين أكلوا بعض عساكر إسرائيل أحياء، وهو ادعاء كاذب بالطبع، ولكنه يعطيك فكرة عن الرجل المغربي إذا شمر ساعده للقتال.

وتجولت في أنحاء المغرب بزي مغربي ولهجة مصرية، وعشت أياماً بين طنجة والقنيطرة وسلا والرباط والدار البيضاء وفاس ومكناس وخنيفرة ووجدة وتطوان. وأستطيع أن أقول وأنا مطمئن البال إنه ليس أجمل من أوروبا إلا المغرب، وليس أجمل من المغرب إلا جنة رضوان. ولكن أوفقيير الشيطان حول الجنة يوماً ما إلى جهنم الحمراء، وجعل من الأسود الضواري أرائب برية تظهر في الظلمة وتختفي في النهار، وحول المغرب إلى منطقة طرد بعد أن كانت منطقة جذب .. لعنة الله على الحاكم الظالم لأنه أشد وطأة على البني آدميين من الوحش الجوعان! والظلم قديم قدم الانسان، وزمان كان الحكام ظلمة، ولكن وسائلهم كانت بسيطة.. عندما هرب عبد الرحمن الأحدب من عساكر العباسيين بعد كسرة بني أمية في معركة الزاب، لم تستطع العساكر أن تلحق به، وتركوه يعبر النهر أمام أعينهم، ثم اختفى بعد ذلك فلم يعثروا له على

أثر، والسبب أن السلطان لم يكن لديه سيارات نجدة ولا طائرات هليكوبتر ولا أجهزة لاسلكي، ولم تكن له مباحث عامة، ومباحث أمن دولة، ومباحث جنائية، ومخابرات، وقيادة قومية، وقيادة قطرية، وأحزاب تشتغل بالتجسس. ولم يكن لدى السلطان القديم عساكر حدود وأجهزة للتنصت ومراقبة على التليفونات. كان السلطان مجرد بنى آدم مثل غيره من البنى آدمين، والفرص متساوية بين السلطان ومن يعارض السلطان، المهم ألا يقبض عليك بيديه، وإذا لم يفعل فأنت إذن حر وحياتك في أمان! .

وفي تاريخ مصر مثلاً، رجل اسمه أحمد بوشناق، كان خادماً لدى علي بك الكبير، وأفشى سرّاً لسيده فاستدعاه علي الكبير ذات مساء، وسأله في خبث: ما جزاء من يفشى السر؟ وأجاب أحمد بوشناق: الموت، وقال علي بك الكبير وهو يتنهد ارتياحاً: أنت حكمت! ثم خلع عليه الخلعة ومد له السماط فأيقن بوشناق أنه هالك، فاستأذن سيده في أن يتوضأ ويصلي فأذن له، فلما خرج إلى فناء الدار قفز على حصانه، وانطلق به هارباً من دار علي بك الكبير في حارة الداودية في شارع محمد علي قاصداً وجه بحرى. ورغم جبروت علي بك الكبير، ورغم دولته المهيبة، لم يستطع أن يعثر علي أحمد بوشناق، واختفى الهارب سنوات طويلة، ثم ظهر بعد ذلك والياً على عكا وباسم آخر.. أحمد باشا الجزار! مسكين أحمد باشا الجزار، لو أنه يعيش في عصرنا وغضب عليه السلطان وفر هارباً، لظفر به السلطان ولو كان في بلاد الواقع واق.

ويا أسقى على المغرب العربى فى ذلك الزمان فالكلام عربى واللكنة فرنسية، والبنيت المغربية ترتدى العباءة ومن تحت العباءة المينى جيب، والرجل المغربى يتكلم العربية ويفكر بالفرنساوى. وأنا عشت أياماً كثيرة فى المغرب أيام سطوة أوفقيرو عنفوانه، وشعرت كيف يعيش الانسان مرعوباً وهو يتنزّه، مرعوباً وهو يعمل، مرعوباً وهو يأكل، مرعوباً وهو يهضم، مرعوباً وهو نائم، مرعوباً وهو مرعوب! .

وإذا كنت أنا الغلبان العدمان قد شعرت وتعلمت، فأنا لا أعتقد أن أحداً من

السادة الطغاة قد فهم الدرس أو تعلم! ولا يزال يعيش فى أرجاء الأرض العربية مائة أوفقيير وأوفقيير ، وعذرنا الوحيد أن درس الماضي يؤكد أن النتائج التى انتهت إليها أحداث الأمس هى نفسها التى ستتحقق فى المستقبل! حكمة إلهية لكى تنمو الحياة وتستمر بالرغم من أنوف الطغاة. ولقد كنت محظوظاً عندما ألفت بى الظروف فى مدينة خنيفرة، ونمت ليلتى هناك عند القائد مهروق زعيم قبائل البربر، وفى لحظة واحدة تبخرت كل معلوماتى التى قضيت أعواماً كثيرة فى تحصيلها، فالمدرسة الفرنسية تزعم أنهم من الجرمان، وأنهم عبروا أوروبا حتى وصلوا إلى الأندلس، ثم عبروا المضيق واستقروا فى شمال إفريقيا. والمدرسة الألمانية تقول إنهم من اليمن، وأنهم عبروا آسيا إلى أوروبا ثم انحدروا إلى الشمال الإفريقى .. مدارس وعلماء وكتب وفنون ومتاحف ومعارض كلها شغل أوروبا؟ وككل أشغال أوروبا فهى أشياء لامعة وملعطة وفلصوا! وفى ضيافة القائد مهروق أدركت أن البربر عرب أقحاح من نسل قحطان! وقد تكون المدرسة الألمانية أقرب إلى الحقيقة ولكنها ليست الحقيقة كاملة. إنهم عرب من بطون وأفخاذ قبائل قديمة، تعرضوا للارهاب والغزو والغدر فأثروا الهجرة قبل الاسلام. ونحن عرب هذه الأيام لا نعرف كثيراً عن عرب الجاهلية. لابد أن البربر هؤلاء خرجوا فى تغريبة مثل تغريبة بنى هلال، ولذلك سترى البربر فى واحة سيوه فى صحراء مصر، وستراهم على حدود موريتانيا، وسترى بعضهم فى تشاد وفى السنغال. وأغلب الظن أنهم لم يذهبوا إلى أوروبا ولم يبصروها على الإطلاق، بل إنهم انحدروا من اليمن إلى صحراء سيناء إلى المحروسة مصر إلى الشمال الإفريقى. ولكن، لأن أوروبا مصرّة، ومصممة على أن يكون كل شىء وأى شىء عبر حضارة أوروبا، فلا بد أن يكون البربر قد ذهبوا إلى أوروبا!.

والحمد لله الذى جعل بتوع أوروبا لا يصرون على أن سيدنا عيسى بن مريم سافر وتجول فى أوروبا، وأن موسى استقر بعض الوقت مع أخيه فى أوروبا! الحمد لله الذى جعل بتوع أوروبا لا يزعمون هذا الزعم! أما البربر فدليلى

معى أفقاً به عيون علماء أوروبا، وهل هناك دليل أسطع من أن أعظم ثوار الشمال الإفريقي كانوا من صنف البربر، وكانت غايتهم العروبة ورايتهم الاسلام: طارق بن زياد كان بربرياً، ومصطفى بن بولعيد أعظم شهداء ثورة الجزائر كان بربرياً، وبين طارق وبولعيد - وعلى بعد المسافة بين القرن السابع والقرن العشرين - ستجد مئات من أبطال العروبة كلهم من جنس البربر، وما عدا هذا من روايات وحكايات فكلها تفانين أوروبية، وتحشيش خواجاتي، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ويا قوة الله على المغرب .. تمشيت أفرنجي في أرجائه لمدة شهر اتسكع على شاطئ المحيط، اتمشكح على شاطئ المضيق، أرنو بعينين دامعتين الى الشاطئ الآخر في الأندلس، كانت لنا هناك يوماً ما دولة وصولة، وكان أجدادنا الميامين يعيشون هناك في عز وعزة، ثم تغلب عليهم حب الرياسة، فتقاتلوا بالحرا ب وبالسيف وبالفئوس، فلما تكسرت تجاذبوا بالشعور، ثم نهشوا لحوم بعضهم بعضاً بالأنياب والضروس! وبكى آخر ملك عربي في الأندلس وهو يغادر الشاطئ الأوروبي إلى الشاطئ الإفريقي، فقالت له أمه سأخرة: «ابك كالنساء على ملك لم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال». ما أبلغ حكمة الأم العجوز لابنها المتها لك المتها فت! فقد الأرض، وفقد العرض، فراح يبكي كالنساء.. ملعون أبوه!

درس القرون الماضية لم نتعلمه، ولم نستفد منه شيئاً، عادت ريمة لعادتها القديمة، انفتاح وانفشا خ وتكالب وتصالح، ولكن أحداً من السادة الأبعاد لم يجد أماً تصرخ في وجهه «ابك كالنساء على أرض لم تستطع أن تحافظ عليها كالرجال». ومن مراکش إلى وجدة، أنا قطعت أرض الله، عليها وحواليها مزارع ممدودة، وخيرات مبدولة، وكنوز مدفونة، وجو ولا جو أوروبا، وخضرة ولا الخضار الطازج في أسواق بلدنا، وناس ما أحلامهم وما أشهاتهم. ولكن الخيبة القوية من دمشق الى الاسكندرية أننى حاولت الكلام مع أحدهم فلم يفهم ماذا أرغب، أنا العربي اتكلم مع أخى العربي فلا يعى، ويتكلم

معه الخواجة فيلبي ويجرى كالنحلة. ولكن عذرى أننى الآن فى وجدة،
والجزائر على مرمى حجر منى، والرجل الذى تحدثت معه ولم يفهم
(جزائرى) صار أبكم تحت حكم الاستعمار. ولكن ها هى الجزائر أخيراً،
وغداً ندخل الأرض التى أكلت من الجثث حتى شبعنا وشربت من الدماء حتى
ارتوت. ووجدت نفسى اهتف رغباً عني : «يا خفى الألفاف نجنا
مما نخاف!».»

نهاية التيونس !

وعندما وصلت إلى وجدة رأيت بصيصا من الأمل : معسكر الثورة الجزائرية وعلم الجزائر يخفق عليه ، وأبناء الجزائر يقبضون على السلاح للكفاح في عزيمة وحوش الغاب . ونمت ليلة في معسكر (العربي بن مهيدي) ، شهيد من شهداء الثورة التي أكلت من الرجال حتى شبت ، وشربت من الدماء حتى ارتوت ! وكان معي عمنا العجوز الصحفي الكاتب العاشق الأبدى لتراب مصر المحروسة ، محمد عودة ، وكان ثالثا في الغرفة الصغيرة التي احتوتنا أحد سيوف الثورة وقائد جيشها الباسل الكولونيل بومدين ، الرئيس بومدين بعد الاستقلال . كان بومدين يدخل باستمرار ، وعيناه اللتان تشبهان عيني الصقر تحدقان عبر أسلاك المعسكر إلى حدود الجزائر . كان يتكلم عن مستقبل الجزائر كأنه يقرأ في كتاب مفتوح . ولم يكن في الحجرة شيء إلا الأثاث الذي يستعمله الجنود ، وعلى الحيطان مجموعة صور متناثرة : صورتا جنرال جياب وماوتسي تونج ،

وتتوسطهما صورة عبد الناصر . كان بومدين يحلم بجزائر عربية واشتراكية .
كان يرى أن الوطن العربي مهيبض الجناح لأن المغرب العربي فى أسوأ
حالاته . كان يردد بيت شعر للمتنبى :

ولست أرى فى عيوب الناس عيبا
كنقض القادرين على التمام

مصيبة العرب الكبرى أن لديهم الإمكانيات لتحقيق الأمجاد نفسها التى حققها
أسلافهم ، ولكنهم بدلا من الغزوات فى سبيل الله ، راحوا يغزون فى سبيل
المتعة ، وتحولت القادسية إلى فريق لكرة القدم ! ومرج دابق وقع فى أسر
اليهود ! وصلاح الدين أصبح محلا لبيع أجهزة التلفزيون فى القاهرة !
والظاهر ببيرس لم يعد أحد يذكره إلا شاعر الربابة ! وقادة بعض البلاد
مشغولون الآن بإقامة الحد على الفقراء من المسلمين ، ومتفرغون بعد ذلك
للصلاة فى أندية لندن ، والصيام فى مواخير باريس ! كأنما حدود الله من
نصيب الفقراء ، أما الأغنياء فهم بالطبع .. أحباب الله !.

مجموع ماأنفقته قبائل بنى كلب على موائد القمار فى لندن ذات عام بلغ عشرة
ملايين جنيه . وقبائل بنى كلب هم الرعاع من قبيلة بنى كليب . أما شيوخ بنى
كليب أنفسهم فقد أنفقوا على موائد القمار مليار جنيه ! هذا عدا وجوه الإنفاق
الأخرى التى اكتشفها بنو كليب : من أول الويسكى إلى الكافيار ، إلى الهزار ،
إلى لهط اللحم الأبيض . وهى تكاليف ماأنفقها أحد من قبل وعلى مر العصور ،
ومن الليلة بتاعة شمشون وحتى الآن ! .

ولكن معسكر العربى بن مهيدى يقف وسط الأرض الخراب كمشعل نور
لعرب المستقبل ! عرب يرفعون اسم الله ، وينشرون عدله ويمهدون سبله ،
ويقيمون حدوده على أنفسهم قبل الغير ! .

وكان معسكر العربى بن مهيدى كحمام لتطهير النفس قبل أن نجتاز حدود

المغرب إلى أرض الأبطال والشهداء .. الجزائر . ولا أنسى لحظة وقفت فيها على الحدود أخلع نعلى حتى لا ألوث أرض العزة والثورة ! .

وعبرت حدود الجزائر . وسجدت أطبع قبلة على أرضها . التراب معجون بدم الشهداء ، والهواء يضيق بمئات الألوف من الأرواح التي ماتت لتحمي الجزائر . ولقد لفت نظري وجود بنات يحملن السلاح مع الثوار . ولم أكن قد رأيت لدى عرب الشرق بنات يحملن السلاح قط ! هذه إذن ثورة رائدة لأنها كسرت جدران السجن المفروض على صنف الحريم العرب ، فنصف الأمة كان معطلا ، وهامو الباب الآن بدأ ينفتح .. ولكن بقدر ! .

ولقد كانت على أرض الثورة في الجزائر ثلاث فصائل ، وثلاث وجهات نظر . حزب مصالى الحاج ، وهو زعيم وطنى تقليدى عييه الوحيد أنه كان لحظة اشتعال الثورة قد أصبح خارج الزمن . ولذلك اندهش كثيرا لأن مجموعة من الشباب قد تجرءوا وأعلنوا الثورة دون استئذانه ، وهو من هو ! هو مصالى الحاج .. الذى عنده تبدأ الجزائر واليه تنتهى ! ولقد ألف جيشا للتحرير مهمته الأولى والأخيرة هي تحرير الجزائر من الفرنسيين ومن جيش التحرير أيضا ! ونشبت معارك الهول بين الجيشين ، وانتهت بتصفية مصالى الحاج وجيشه ، ومات الرجل يرحمه الله ، دون أن يدرك سر القوة الكامنة في هذا الجيل الجديد الذى أشعل الثورة وانتصر فيها .

ثم الحزب الشيوعى الجزائرى ، وهو فرع من الحزب الشيوعى الفرنسى . ولقد أعمته جدران النظرية التى حبس داخلها ، فلم ير زهور الجزائر الجديدة التى رفعت رأسها تبحث عن شمس الحرية ، وأصمت أذنيه فلم يسمع صيحات القومية التى راحت تتصاعد في سماء الوطن العربى باحثة في ماضيها البعيد عن مستقبل أفضل لها ، ولم يشعر بريح العروبة تهب ساخنة عبر الحدود والسدود ، تقتلع كل من يتحداها أو يقف في وجهها . ولذلك رفع شعار (تحرير الجزائر يبدأ من تحرير باريس) و .. (الاستعماريون الفرنسيون يستعمرون فرنسا والجزائر معا) . وكان معنى ذلك في بساطة هو أن تحرير الطبقة خير

من تحرير الوطن . ولم يكن لدى شعب الجزائر استعداد للاستماع إلى مثل هذا الكلام ، وكيف يمكن أن يصغى شعب لكلام من هذا النوع ، وقد استببح دينه وأرضه وعرضه ، ولم يبق لديه شيء لم يستبح ؟! ولذلك انطلق الرصاص في صدور أعضاء الحزب الشيوعي الجزائري ولقوا جزاء الخونة ! خطأ في التحليل ؟ نعم ، ولكن أدى إلى مأساة مروعة ! ..

وكان الاتجاه الثالث هو الاتجاه الصحيح ، وهو الذى انتصر . وقد بدأت الثورة ببيان صغير إلى شعب الجزائر ، وبخمس عشرة بندقية صيد ، ولكنها انتهت بالقضاء على فرنسا الجنرال لاكوست ، وحطمت الجمهورية الرابعة . ومن أجل هذه النهاية السعيدة ، خاضت الثورة فى بحار من الدم . وكما أكلت الحرب زهرة شباب الجزائر ، أكلت خيرة بنيتها ، ولكننا ، رغم كل شيء ، ربحتنا الجزائر المستقلة العربية المجيدة . ولقد استمعت إلى وردة الجزائرية أول مرة داخل أرض الجزائر ، وبالتحديد فى مكان ما على قمم التلال المطلة على تلمسان الجميلة . كان الثوار يحتفظون لها بأغنية على شريط ، أغنية حزينة تقول « كلنا جميلة ، كلنا فداها » ..

وتعرفت على أدب الجزائر وأنا أنقل الخطى بين القرى المتناثرة فى الجبال وهزئتى روايات محمد ديب ، ولكن رواية (التيوس) لإدريس الشرايبي هى التى أصابتنى بالحمى . رواية تكشف عن مأساة المغرب العربى ، بعمق وبأساذية . وهو روائى عالمى بكل مقاييس العالمية . إنه شتاينبك الأمريكى ، وسمرست موم الانجليزى ، وديستوفسكى الروسى ! وهو قمة لا أعتمد أن أحدا من كتاب العرب الروائيين وصل إليها حتى الآن . عيبه الوحيد أنه يكتب بالفرنسية ، وهو العيب الذى من أجله قامت الثورة على فرنسا . فلم يكن إدريس الشرايبي وحده هو الذى كتب عليه أن ينسى لغته وأن يتكلم لغة فرنسا ، بل كان هذا مصير شعب الجزائر كله .

فقد أرادوا الجزائر ، شاطئنا للاستحمام ، ومزرعة للكروم ، ومكانا استراتيجيا للقواعد العسكرية ، وسوقا لتصريف البضائع ، وحظيرة لتربية

الأيدى العاملة الرخيصة والمنتجة ! فهل نجحت فرنسا ؟ الواقع يقول لا ، لأنك تريد وأنا أريد ، والله يفعل ما يريد ! .

كانت رواية إدريس الشرايبي عن شاب مغربي عاطل ، كان رافضا كل شيء حوله ، ولكنه لم يكن قادرا على تغيير أى شيء حوله ! ولذلك بصق على الأرض التى ينتمى إليها ، واستقل باخرة متشردة عبرت به البحر إلى فرنسا . وفى فرنسا أراد أن يتعلم لكنه ، بعد فترة ، أدرك أن التعليم ترف لا يقدر عليه إلا الأثرياء ، فحجر الجامعة واشتغل عاملا فى مصانع الخمر . ثم انتقل إلى الميناء ، وعمل بعض الوقت فى جمع المحاصيل من الحقول . لكنه ضاق بالعمل ، عندما اكتشف أنهم يستأجرون قوته البدنية الهائلة لقاء ما يحفظ له حياته . فآثر التسكع فى شوارع باريس ، يعمل أحيانا فى علب الليل ، وأحيانا يشترك فى سرقة صغيرة ، حتى اهتدى عن طريق الصدفة إلى العمل الذى كان يتوق إليه : تعرف إلى سيدة فرنسية عجوز كانت مريحة وراغبة فى المتعة وثرية فى الوقت نفسه ، وكان هو فحلا وقادرا على إشباعها طوال الوقت . وحققت له الوظيفة الجديدة نوعا من الاستقرار كان يفتقده ، كما ضمنت له كأس خمر معتقة على مائدة عشاء فاخر كل ليلة ، وأيضاً أجرا ثابتا هو أضعاف أضعاف ما كان يتقاضاه عن أعماله السابقة فى المصانع وعلى أرصفة الميناء وفى الحقول ! .

وأحيانا كانت تحدثه نفسه بالثورة على الوضع الذى تردى إليه ، لكنه كان يكتم هذا الصوت المنبعث فى داخله ، فلماذا الثورة وهو على أى حال يؤدي عملا وطنيا ؟! فهذه المرأة الشمطاء هى فرنسا ذاتها ، وهو يمتطى فرنسا كل ليلة ! وعندما تصبح المرأة العجوز فى ذروتها ، وتتأوه بصوتها الرفيع المسلوخ ، تتردد على لسانها كلمات « سيدى » و « عفوك » و « أنا خادمك » ! عندئذ ينشرح صدره ، ويبتهج فؤاده .. لقد هزم فرنسا وأذلها ، وهو جيش تحرير كامل بمفرده ، وسلاحه هو بدنه ، والنصر معقود له كل ليلة ، والهزيمة كاملة لأعدائه ، والتسليم دون قيد ولا شرط !! .

ولكن المكافح العظيم يمرض فجأة ، يبصق دما ويكتشف أنه مريض بداء السل . ويكتشف أيضا ، وهو يعاني من الألم ، أنه كان يحقق انتصارات في معارك جانبية ، ولكن السيدة الشمطاء هي التي انتصرت في الحرب وعندما تكتشف عجزه تلقى به في الطريق . إن المرأة العجوز لها جسد وليس لها قلب . والمهنة التي اختارها تحتاج الى لياقة ، فاذا فقدتها فقد الوظيفة ! ويهذى وهو يعاني سكرات الموت على فراش قذر في مستشفى حكومي فقير : هل الطريق الذي اختاره كان هو الطريق السليم ؟ ويردد وهو يحتضر : المغرب ، المغرب . ولم يفهم أحد من المرضى الفقراء الذين التفوا حوله ، هل كان يتحدث عن المغرب وطنه أم المغرب حياته ؟ على أية حال ، لم يكن المغرب الذي يتردد على لسانه سوى هذه الأرض البعيدة التي رفضها ذات يوم ، وبصق عليها وهو يغادرها إلى الأبد ، ولكنها على كل حال هي الصورة التي بقيت في خياله لحظة وفاته ! .

هذه لمحة صغيرة سريعة عن رواية (التيوس) ، وقد انتهت بموت تيس ، ولكنها لم تنته من ذاكرتي قط ، وعندما سألت ابن عباس - مرافقي في رحلتي داخل الجزائر - هل إدريس الشرايبي جزائري ؟ أجابني التأثير في بساطة : إنه من المغرب ، والمغرب من طنجة إلى طبرق .. ليس عندنا مغرب وجزائر وتونس وليبيا ، فكلنا مغرب عربي ، كما أنكم كلكم من المشرق العربي ! .

وعشت أياما عظيمة داخل الجزائر . واكتشفت السر الذي لم تستطع فرنسا بهيلمانها اكتشافه : أن فرنسا تستعمر الجزائر العاصمة والشواطئ كله .. ولكنها لم تستعمر الريف الجزائري قط ! هنا في الريف الجزائري ، الناس لا يزالون عربا أقحاحا ! اللغة عربية والعادات عربية والسلوك عربي . وفرنسا عندهم هي هؤلاء الجنود الذين يعيشون عند الساحل ! .

قضيت ليلة في منزل رجل عجوز في قرية تنام في بطن جبل في منطقة القبائل . وفي الليل نهض الرجل فذبح لنا شاة وأوقد النار وأنهمك في إنضاج اللحم . وبدا وجهه المغضن على وجه النار كأنه تمثال قديم لرجل من عهد

مضى . وسألنى الرجل وقد كشفت ابتسامته عن فم مهجور : هل أنت من مصر ؟ ولما أجبته بالإيجاب ، قال : زرتها مرة سيرا على الأقدام ! سألته : وكم عمرك الآن ؟ قال : ثمانون أو أكثر .. لأدرى على وجه التحديد . قلت : لقد سمعت عنك ثناء كثيرا من رجال الثورة ، فما رأيك فى الثورة ؟ سرح بعض الوقت ، وقال : الثورة ؟ .. لقد تأخرت كثيرا ، والسبب أن ثوارنا فى الماضى كانوا يتجهون نحو المدينة ، ولكن المدينة كانت قد فسدت ، أفسدها المستعمرون أنفسهم ، ولو أنهم كانوا اتجهوا الى الريف لقامت الثورة منذ زمن بعيد . ولكنها على العموم اشتعلت الآن ، والسبب أنهم اتجهوا الى الريف ، لأن الريف كان مستعدا دائما للثورة ، ولم يكن ينقصه إلا الإشارة لبدأ الثورة . ولكنها بدأت الآن ، ولذلك أنت هنا معنا ، ولولاها لما وقعت أعيننا عليك ، لأن الملاحين فصلوا الريف عن المدينة ، وفصلوا الجزائر كلها عن المغرب . ولكن كل ذلك كان فى حكم المستحيل ، لأنك لا تستطيع أن تعبر البحر على بسكليت ! .

وعشت فى جزائر الثورة أربعة عشر يوما أنقل خطواتى فى حذر ؛ ففى كل شبر من الأرض سقط شهيد . ولكن الأيام القليلة التى عشتها مع الثوار كانت كافية لإقناعى بأن عالم الجزائر القديم سينهار حتما على رهوس أصحابه ، وأن عالما جديدا يطل برأسه من تحت الأنقاض ، ويشق طريقا فى بحر من دماء الشهداء ، ويرنو بعينه نحو المستقبل رغم العواصف الشديدة المحملة بالمشاكل والمآسى والخراب ! .

والحمد لله لأن العمر امتد بالعبد لله حتى قدر لى أن أدخل الجزائر من أبوابها الشرعية . لقد انتصرت الثورة لأنها قامت لتنتصر ، وقامت فى الجزائر حكومة وحكومة وحكومة ثالثة . وفى ظل الحكومة الأولى استولى على حكام الجزائر بعض المتمصرين ، يهود على موارد . واستطاع هؤلاء أن يفتحوا دكاكين للنضال على الطريقة الثروتسكية المهلبية ، ويامه القمر ع الباب !! وفى أول عيد من أعياد ثورة الجزائر ، تصورت أن العبد لله سيكون من بين المدعوين ،

ولكن الذى حدث أنهم دعوا جميع أهالى حى شبرا وجميع المناضلين فى تنظيم (زمش) ولم يوجهوا الدعوة للعبد لله . أنا ؟! الذى كان أول صحفى مصرى يدخل جزائر الثورة ، ويكتب عنها حلقات يومية نشرت بجريدة الجمهورية فى عام ١٩٥٦ . ثم أصدرت كتابا عن الثورة الجزائرية بعنوان (أرض اللهب والدم) ، وكتب مقدمة الكتاب عمنا الكبير محمد عودة . ثم كتبت مسرحية عن ثورة الجزائر اسمها (فيضان النبع) قدمتها فرقة المسرح الحر ، واضطلع بأدوار البطولة فيها العبقري الراحل صلاح منصور ، والفنان على الغندور ، والفنان أحمد سعيد .. رحمة الله عليه ، والفنان عمر عفيفى طيب الله ثراه . ياخيبة النظم العربية حين تقع فى أيدي النصابين وبتوع الثلاث ورفات . وللأسف الشديد كان هؤلاء النصابون من مصر . صحيح أنهم ليسوا مصريين ، ولكنهم عاشوا حياتهم كلها فى مصر ، وناضلوا فى مصر ، ودخلوا السجون أحيانا فى مصر ! .

وأقسمت أن أزور الجزائر المستقلة ولكن دون دعوة ، وأن أذهب الى تلمسان الجبل . وبالفعل ذهبت الى الجزائر ، وليتنى ماذا ذهبت ! كنت قادما من قلب إفريقيا فى طائرة خاصة تحمل وفدا مصرىا عالى المقام ، وحطت الطائرة فى الجزائر ، فاستأذنت وأخذت حقبتى ونزلت . وعشت فى الجزائر أسبوعا فى حالة اندهاش دائم . كنت أود أن أغنى على كل شبر من الأرض وأبوس التراب . وعندما حان وقت الرحيل ، ذهبت إلى المطار فى صحبة الأستاذ مهابة مستشار مصر الصحفى حينذاك ، ووضعت حقائبى فى الطائرة المتجهة إلى باريس ، وودعت المستشار مهابة ، وصعدت سلم الطائرة لأسمع صوتا ينادينى من الخلف يأمرنى بالعودة مرة أخرى إلى المطار . واكتشفت أنني مطلوب للتفتيش تفتيشا ذاتيا . وفعلوا بملابسى كل ما يشتهون : مزقوا ياقة قميصى وبطانة جاكيتى وثنية بنطلونى . كان واضحا أنهم يبحثون عن ورقة أو خطاب . وعندما انتهوا من التفتيش كانت الطائرة قد غادرت المطار إلى باريس . واتصلت بالسفير المصرى فى الجزائر الذى جاء على عجل إلى المطار . ثم جاء

المستشار مهابة أيضا . ثم جاء مدير المطار ، وراح يكرر نفس العبارات (القرعة) التى يجيدها رجال الأجهزة فى شرق البحر المتوسط : فالمسألة كلها غلطة ، وسوء فهم ، وهو يعتذر ، ونحن نقبل الاعتذار . وغادرت الجزائر فى اليوم التالى الى باريس .

وبعد خمسة أيام من وصولى إلى فرنسا ، عرفت السر وراء تفتيشى فى المطار . فبعد خمسة أيام بالضبط من وصولى إلى باريس ، سقط نظام الرئيس بن بيللا ، وقام نظام جديد برئاسة الراحل بومدين . ويبدو أنه خلال الشهر الأخير من حكم بن بيللا لم يكن هو الذى يحكم الجزائر بالفعل . ويبدو أن الأجهزة التى كانت تأتمر بأمر بومدين قد ارتابت فى العبد لله لحظة نزولى من الطائرة المصرية ؛ فهى طائرة خاصة ، وعلى متنها وفد مصرى على مستوى عال ، ولا بد أن كل ركابها من رجال الأجهزة حتى وإن تخفوا فى عباءة الصحافة . ولما كان بن بيللا متهما بأنه عميل لعبد الناصر ، فلا شك إذن فى أننى فى مهمة من أجل بن بيللا ولمصلحة عبد الناصر . ولقد تصوروا أننى جئت أحمل رسالة لبن بيللا ، وأكد هذا الظن لديهم أننى التقيت بعبد الرحمن شريف مدير مكتب بن بيللا ، كما أن مسئولا مصريا من السفارة المصرية كان فى وداعى عند الرحيل .

إلى هذا الحد تمضى الأمور فى العالم العربى ، وإلى هذا الحد تنحدر الأمور أيضا . يالها من ذكريات حزينة وأليمة تركتها زيارتى الأولى للجزائر المستقلة . ولكنها لم تضعف إيمانى لحظة بأن مافعلته مصر من أجل الجزائر كان هو ماينبغى أن تفعله بالضبط . لقد أدت مصر واجبها من أجل تحرير الجزائر . الهدف كان تحرير الجزائر وبعد ذلك كل شيء يهون ! .

ولقد زرت الجزائر بعد ذلك أكثر من مرة ، وكلها تمت من جيبى الخاص أو على نفقة الجرائد التى كنت أمثلها . ولم أقبل دعوة لزيارة الجزائر قط .. ولكى أكون دقيقا وأميّنا ، لقد قبلت الدعوة لزيارة الجزائر عندما ذهبت إليها فى المرة الأولى ، ودخلتها مع ثوار الجزائر . ومازلت أحفظ أجمل الذكريات لهؤلاء

الرجال البواسل الذين رافقوني في رحلتي الأولى إلى أرض الشهداء ، كما كان مسعود و ابراهيم حرشي و (سي) إدريس . ترى أين ذهب هؤلاء بعد ذلك ؟ وأين هم الآن ؟ لا أريد أن استشهد بالمثل المعروف عن الثورة ، ومن يشعلها ؟ ومن يستشهد فيها ؟ ومن يجنى ثمارها ؟ المهم أن الجزائر قد تحررت واستقلت وصارت جوهرة ثمينة في تاج العروبة . ولذلك هتفت من أعماقي وأنا أغادر الجزائر في آخر زيارة : « يارب الهمة ، الحمد لك ، والشكر لك ، لأنك وفقت جيلنا في إنجاز هذه المهمة » !.

والوزير قال لرياس

عندما دخلت تونس أول مرة ، أدركت السبب الذي من أجله اختارتها قبائل بني هلال للإقامة فيها خلال التغريبة . فتونس الخضراء هي جنة الشمال الأفريقي ، وأهلها أكثر العرب ليناً وأشدّهم عذوبة . والعبد لله دخل تونس ذات صيف حار ملتهب ، خلع فيه بورقيبة الباي وجلس على دكة الحكم في تونس . والحق أقول إن الباي لم يكن في حاجة إلى من يخلعه ؛ فهو مخلوع منذ البداية ! وعندما كان جالساً على مقعده ، لم يكن في استطاعته ولا في سلطته نقل فراش من مكتبه ، كان في استطاعته فقط أن يتجول كما يشاء في الحديقة ، أما خارج سور الحديقة فلم يكن له حول ولا طول ! .

وكان بورقيبة زعيماً تقليدياً خارجاً من صفوف الشعب . كافح وناضل طويلاً ، وتشرّد في داخل تونس ، ثم نفى في الأرض . وكان من خلفه حزب

شديد التنظيم صارم الانضباط. وكان في استطاعة بورقيبة من خلال الحزب أن يشعل النار في تونس بإشارة، وأن يخمّد النار إذا أراد بإشارة! ولكن عيب الحزب الدستوري التونسي الجديد، أنه كان جديد التشكيل، ولكنه ليس جديد الأفكار. فاكتفى بوحدة المغرب العربي بديلاً عن وحدة العالم العربي، وقنع بالاستقلال التام، دون أن يقترب من المشكلة الاجتماعية. ولم تكن للحزب أيديولوجية، ولكن مجرد أفكار هائمة، وخطوط غير واضحة، وكلها مأخوذة ومستمدة من خطب الزعيم وكلماته الخالدة! .

ولقد أتاحت لي الظروف أن أرافق الزعيم خلال شهر كامل زار فيه كل شبر في تونس، ولم ينس أيضاً زيارة جزيرة (جالطا)، وهي التي نفاه إليها الفرنسيون خلال سنوات الكفاح. وأشهد أن بورقيبة زعيم جماهيري من طراز فريد، إنه من نفس طينة مصطفى النحاس، مع اختلاف المواقف والظروف. سمعته يخطب في مدينة الكاف على الحدود الجزائرية. وتطرق الحديث إلى نظرية رأس المال. وقال بورقيبة جاداً: «يقولون إن رأس المال هو نتيجة فائض القيمة، وأنا أقول هذا كذب، فـرأس المال هو نتيجة التوفير!»، ولم تضحك الجماهير، ولكنها مزقت أكفها من التصفيق، وبحت حناجرها من الهتاف للزعيم الخالد! ولقد كان من الممكن لبورقيبة أن يمضي في طريقه وأن يلعب دوراً في حياة العرب، لو أنه أدرك عمق التغيير الذي طرأ على الأمة العربية بعد الحرب العالمية الأخيرة.. لم يستطع بورقيبة أن يلحظ عمق التغيير الذي أحدثته حرب فلسطين، ولذلك ستجده يعلن عن قبوله لمبدأ إيزنهاور، حتى قبل أن يعلن إيزنهاور تفاصيل مبدئه! وسيهاجم حزب بورقيبة وحدة مصر وسوريا قبل إعلانها، كما أنه جاهر يوماً ما بضرورة عقد الصلح مع إسرائيل. وإن كان إنصافاً للرجل أقول: إن ما دعا إليه بورقيبة، في الماضي، ربما كان أقل مما وصل إليه الحال الآن! .

ولكن ما الذي شدنا إلى السياسة في تونس، وكنا نود أن نسير في موكب البشر، وأن ندخل في زحام الناس؟ السبب في الحقيقة هو مؤتمر سياسي

حضرته في صفاقس، وكان هو مفترق الطرق بالنسبة لمستقبل تونس، وأبرز علامة على الطريق. كان المؤتمر ببساطة يطرح خلافاً في الرأي بين بورقيبة ومجاهد تونسي آخر هو صالح بن يوسف. وكان الأخير يرى أن قبول الاستقلال الذي تعرضه فرنسا على تونس خيانة للجزائر. وكان من رأيه أن يحمل التوانسة السلاح إلى أن تستقل تونس والجزائر معاً. وكان يعتقد أن الظروف مناسبة للدخول في معركة شرسة وطويلة ضد فرنسا حتى تنهكها تماماً، كما حدث في الهند الصينية. وكان واثقاً من أن (ديان بيان فو) عربية على الأبواب!.

وكان بورقيبة يرى العكس تماماً. كان يرى أن نصف استقلال خير من استمرار الكفاح من أجل استقلال كامل. وكان من رأيه أن تونس نصف المستقلة قادرة على حماية الثورة الجزائرية ومدها بالمال والسلاح، محتمية بالعلم الوطني وعضوية الأمم المتحدة! وأطلق بورقيبة عبارته المشهورة: «قلنضع أقدامنا على أي أرض، ثم نمارس من فوقها سياسة الخطوة خطوة». ومن هنا فبورقيبة هو راسم السياسة التي تبناها العزيز كيسنجر وطبقها بعد ذلك بثلاثين عاماً في الشرق الأوسط!.

وانعقد مؤتمر صفاقس في جو متوتر، ودعيت إليه جميع إدارات الحزب، وتخلف صالح بن يوسف، فقد كان هارباً في الخارج ناجياً بحياته. وبالطبع صفق الحزب طويلاً لبورقيبة، ودعا له بطول العمر! وأشهد الآن أنني خلال المؤتمر كنت في صف صالح بن يوسف. ولكن التجربة أثبتت أن بورقيبة كان على حق. فمن خلال تونس المستقلة استطاع الحكم أن يحمي ثورة الجزائر، وصارت تونس قاعدة للثورة ومقراً للثوار. المهم أن مؤتمر صفاقس كان هو الفصل الأخير من مرحلة الحوار بين الثوار. وبدأت مرحلة جديدة بعد المؤتمر، هي مرحلة الحوار بالرصاص. وانتهت هذه المرحلة أيضاً بإطلاق رصاصة على رأس صالح بن يوسف، وهو في غرفته في أحد الفنادق بألمانيا الغربية! ومات سياسي عربي مخلص، اجتهد فأخطأ، وبدلاً من أن يثاب على

خطئه بأجر، أصيب برصاصة في الظلام قضت عليه!.

صفت المياه للحزب الحر الدستوري التونسي وصار هو الحزب الحاكم في بلد الخضرة والسلام. ورفع الحزب شعار (وحدة عرب الكسكى والجلاب). وكانت غلطة لا تغتفر، لأن الحزب قسم العرب إلى أكلة الكسكى وأكلة الفول، وأكلة الكبة والسماك المسجوف، وأكلة الويكا والشموت! .

وتركت الحزب الحر الدستوري يحلم بحكم المغرب العربى من طنجة إلى طبرق، ونزلت إلى الشارع أشرب الشاي مع شعب تونس حول أسوار جامع الزيتونة، وأدخن النارجيلة فى حوارى القصبة، واتمشى أفرنجى على شواطئ بوسعيد، وأشرب البوخا فى المقاهى المنتشرة على طول جادة الاستقلال! وبهرنى الشعب التونسى بحيويته وذكائه واحترامه الشديد للفن وحبه الشديد للحياة! تعرفت على بنت تونسية تحاول أن تخطو أولى خطواتها فى عالم الطرب. سألتنى كيف تقابل أم كلثوم وليلى مراد ومحمد عبد الوهاب؟ جلست فى ندوة أدبية، وكان الحديث كله يدور حول أحمد أمين وزكى مبارك وطه حسين والعقاد. تناولت العشاء مرة على طاولة فى ناد للكرة، وكان الحديث كله عن الكابتن الضيظوى والكابتن الديبة والكابتن صالح سليم. دعانى أحد مشايخ جامع الزيتونة إلى منزله وراح ينادينى طوال السهرة بـ(الحاج)، فلما قلت له بأننى لم أتشرف بعد بحمل هذا اللقب، ولم أسعد بعد بزيارة الأرض المقدسة، أجابنى الرجل الطيب: «الأرض المقدسة تبدأ عندنا من حدود مصر».

وعشت فى صفاقس أياماً فى ضيافة الشيخ أمين حسنين، وهو مطرب ومقرئ مصرى شهير ذاع صيته فى عشرينات هذا القرن، وهاجر إلى تونس قبل الحرب العالمية الأخيرة. وخلال احتلال ألمانيا لتونس، كان ثعلب الصحراء روميل يتردد عليه فى منزله ليستمع إلى فنه العظيم، وأهداه علبة ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة ليحتفظ فيها بالنشوق. ورأيت هدية روميل مع الشيخ أمين وكان يعتز بها اعتزازاً خاصاً، كما كان فخوراً بصداقة

صاحبها، وقال لى وهو يتنهد أسفاً: كان روميل يحب الإسلام، وكان فى سلوكه يتشبه بالمسلمين الصالحين!! كان الشيخ أمين غارقاً لأذنيه فى حب تونس، وما الفرق بين تونس ومصر؟ أو بين تونس والعراق؟ أو بين تونس والحجاز؟ لا شىء فى واقع الأمر. وأدركت سر بيرم التونسى الذى اقترن أبوه التونسى بامرأة مصرية اسكندرانية، فأنجب أعظم زجال مصرى نطق باللغة العامية المصرية على طول الزمان! هؤلاء التوانسة الأحباء هم أحفاد بنى هلال، حلوا ضيوفاً عليها بعد تغريبة شهيرة خرجوا فيها من الجزيرة العربية، قاطعين الطريق إلى تونس عبر بغداد وسر من رأى والموصل ودمشق وسهل طبرية والقدس والخليل وغزة والقاهرة والاسكندرية وبنى غازى وطرابلس. وعبر الطريق أقاموا وتزوجوا وتناسلوا، وأخذوا نسلهم معهم، خليطاً من أبناء قحطان المنتشرين على الأرض العربية. ولذلك ستجد التواشيح التونسية، خلاصة فن العرب جميعاً. وستجد فى التونسى خصال العربى القديم، رفته وشجاعته ودهاءه وسعيه الذى لا يكل! ويا ميت صلاة النبى على التونسى إذا صادق، وعلى التونسية إذا أحببت! سيعطيك الصديق حياته، وستعطيك الحبيبة كل ما أودع الله من أسرار فى بنت حواء، ومن أخمص القدم الى مفرق الشعر!.

وياميت حلاوة على تونس العاصمة كأنها برج بابل. فيها شوارع كفرنسا وحوارى ولا حوارى بولاق الذكور. وفيها باطحات سحب كنيويورك وأكواخ كأكواخ الزوج. وفيها نسوان ماشية فى الشارع (زلط وملط)، ونسوان تخرج الشارع مختبئة فى خيمة، وكأنهن يعشن فى أيام عمرو ابن كلثوم! وفى تونس مزارع ولا مزارع الدلتا، وصحراء ولا صحراء العلمين. وفيها مطاعم ولا مطاعم مكسيم، وجوعى ولا جوعى المنطقة التى على حدود بنجلاديش والهند! ولكن أعظم ما فى تونس هو احتفاظها بالطابع العربى الأندلسى فى العمارة وفى الموسيقى وفى المطبخ. وكل تونسى فنان ولو كان يعمل فى كنس الشوارع. وكل تونسية مطربة ولو كانت تغسل الملابس فى البيوت.

والبنيت التونسية عينها جامدة وشخصيتها أجمد، وهى عنيفة كالصخرة ورقيقة كفصن البان، ولكن الرجل التونسي (مزاجاتلى) وكل ساعة بحال. هو فى الكرم كحاتم، وفى السهر كنديم فى بلاط هارون الرشيد، وفى الخصومة أشرس من نمر الغاب! وهو الوحيد ربما فى المغرب العربى الذى يحب النكتة المصرية ويفهمها ويضحك على أى نكتة عمال على بطلال. والتاجر التونسى هو أشطر تاجر فى المغرب العربى. وهم يجيدون أشغال الفندقة والسياحة وجذب الغرباء. وهم فى المغرب العربى كلبنان فى المشرق العربى، ولكن هناك فرقاً، فالتونسى فيه كل مزايا اللبناى وليس فيه أى شىء من سلبياته. والسبب أن التونسى لا يعرف الجبال، ولكنه يعيش فى سهول خضراء وفى صحراوات ممدودة.

وميزة تونس أيضاً أن الحزب الحاكم استطاع أن يفرض الأمن فى كل مكان. كما أنها تخلو تماماً من أى مراسم فى دوائر الحكومة. وتستطيع فى أى وقت أن تقابل كاتب الدولة (الوزير) حتى بدون أسباب، يكفى أن تدخل مكتبه وتشرب الشاى وتنصرف فى سلام! وبورقينة هو الزعيم الوحيد الذى يتحدث مع شعبه مرة كل أسبوع من خلال التليفزيون، حديثاً ليس فى السياسة، ولكنه حديث شخصى كأنه جالس مع أقرب أصدقائه فى البيت. وهو يحكى لهم عن خلافاته الزوجية، وأسباب القطيعة بينه وبين ولده الحبيب، وعن أكلة البيض التى سببت له الإسهال! وأحياناً يصف لهم دواء جربه هو شخصياً وينصحهم باستعماله، باعتبار: اسأل مجرب ولا تسأل طبيب.

والنساء فى تونس لهن حظوة ولهن حضور فى المجتمع، ولهن فى السلطة كلمة ومكان. وكانت السيدة الأولى وسيلة قبل طلاقها هى مصدر جميع السلطات!.

والحق أقول إننى عشقت تونس من أول نظرة، ولكن أحوال السياسة التعبانية حرمتنى من زيارتها منذ ذلك التاريخ، فلم أشاهدها مرة أخرى منذ عام ١٩٥٦. ولكن تونس الخضراء بالرغم من كل هذه السنين لم تذهب صورتها

من مخيلتي. فقد قضيت فيها وقتاً طويلاً وطيباً، وقطعتها من شاطئ البحر وإلى عمق الصحراء. وأدركت وأنا اتسكع في ربوعها، ومن خلال أشجار النخيل والتين والزيتون وبساتين الكروم، كيف نشأ وترعرع أبو القاسم الشابي، أبرز شعراء عصر الرومانسيين العظام. ذلك العصر الذهبي الذي أنجب ستة من فحول الشعراء، أمثال: علي محمود طه، وأبو القاسم الشابي، وناجي، وأحمد فتحي، وعبد الرحمن الخميسي، وكامل الشناوي، ومحمود حسن اسماعيل. وبالرغم من جديد صلاح عبد الصبور ونزار قباني، إلا أنهما يعتبران امتداداً له وبعضاً من بقاياها!!.

وتركت تونس ذات صباح خريفي جميل، وتركت قلبي هناك مع بنت من بنزرت على خدها شامة وعلى (خشمها) وشم. البنت التونسية كانت تقرض الشعر أحياناً، وتضرب على العود أحياناً، وتغني دائماً حتى وهي تصرخ، وهي تبكي، حتى وهي صامتة وصائمة عن الكلام! وكان العبد لله شاباً في شرخ الشباب، وللشباب فنون وجنون أيضاً.. ما أحلى أيام الشباب! وودعت تونس إلى لقاء، ولكننا لم نلتق قط، قاتل الله السياسة، فرقّت بيني وبين تونس، وفرقت بين تونس وجيرانها، ولم يبق من وحدة الكسكي والجلاب، إلا أطباق الكسكي، وقماش الجلاب!!.

الأرض الخراب

ودعت تونس كلها ، ويمت وجهى شطر الحدود الليبية ، وكانت
انتقالة قصيرة فى المسافة ، لكنها كانت نقلة رهيبة فى الزمن . فبينما
عبرت الحدود فى ساعة ، وجدت نفسى أعود القهقرى ثلاثة قرون على
الأقل . ولقد دخلت ليبيا بمعجزة ، فقد رفضت جميع سفارات الملك إدريس
منحى تأشيرة دخول .. دخت دوخة الدجاجة المنصابة ، وأنا واقف على
باب السفارة السنوسية فى القاهرة . ورابطت أياما أمام سفارات ليبيا فى
عواصم أخرى كثيرة ، ولكن لا من شاف ولا من درى ، كأن أى مواطن
مصرى بالنسبة إلى مملكة السنوسى - رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه
يأولى الألباب ! وكان الشلحى الموجود فى القاهرة اليوم يرسم خرائط السد
العالى الذى قررت حكومة ليبيا إقامته على الحدود ، ليمنع اتصال القطرين !
وكانت ليبيا - وقتئذ - (حلال للطير من كل جنس ، حرام على بلبله
الدوح !) . وبالرغم من ذلك توكلت على الله وتوجهت نحو الحدود الليبية ،

وقلت : فليكن ما يكون ! وما الذى سوف يكون سوى منعى من الدخول ، أو ضربى علة عند الحدود ، أو حبسى بضعة أيام فى سجون ليبيا . وأيا كان الأمر ، فستكون هناك قصة تصلح للكتابة وحدوته تحفظ فى متحف الذكريات . ثم إننى فى النهاية سأتمكن من إلقاء نظرة على قطعة من أرض العروبة ، فمن يدرى قد يشاء حظنا التعس أن نعيش ونموت دون أن ندخلها قط!.

ووقفت أمام عسكري الجوازات الليبى ، وراح يدقق فى جواز سفرى ثم قال مندهشا : ولكنك لا تحمل تأشيرة دخول ؟ ! وقلت للعسكري برقة متعمدة ، وبأدب مبالغ فيه : إننى فى الحقيقة لا أقصد زيارة ليبيا ، ولكنى مجرد عابر سبيل فى طريقى إلى مصر . فإذا أردت منعى تأشيرة لمجرد المرور فأنا شاكر فضلك ، وإذا كان هذا مستحيلا ، فسأعود أدراجى من حيث جئت ، وكفى الله المؤمنين القتال ! وقال العسكري الليبى ووجهه يضىء بالحب : إذا كانت مصر بلادك فهذه أيضا بلادك ، مرحبا بك فى أرض ليبيا وإلى أى مدى تشاء . وختم الرجل الطيب جواز سفرى ، زيارة لمدة شهر . ياسبحان الله ! كل الاحتياطات التى اتخذتها حكومة جلالة الملك وقناصل جلالة الملك ومخابرات جلالة الملك ، أطاح بها هذا العسكري العربى الطيب فى لحظات ! أى انفصال كامل وكلى بين ما يدبر فوق فى العلالى ، فى قصور الحكام ومكاتب المتسلطين ، وما يجرى فى الشارع مع جماهير الناس الطيبين ، التى تدرك بالغريزة أنه مادامت مصر بلادى فليبيا أيضا بلادى ، ومرحبا بك فى بلادك ... وإلى أى مدى تريده .

وكما موسى كلم الله ، جئت ليبيا على قدر ودخلت المدينة أسعى على حذر ، ولكن أين هى المدينة ؟ الشاطئ مهجور إلا من أشجار النخيل ، والشوارع خالية إلا من بعض عساكر الأمريكان ، وحوانيت مفتوحة ولكن بلا حركة فى الداخل ، وعدد من النساء يقطعن الشارع وقد ارتدين خياما متنقلة حتى لاتقع عليهن عين بشر ، وبعض الرجال فى ملابس رومانية من عهد

قيصر . ثم لا شيء بعد ذلك . لاشيء على الإطلاق إلا السكون والصمت !
وقبعت فى صالة فندق المهارى على شاطئ البحر اتطلع إلى الوجوه التى
حولى ، وكلها وجوه خراجات عبرت البحر من أوروبا ، بعضهم خبراء ، وأغلبهم
جواسيس وعملاء ووسطاء ، والكل مثلى قابع فى مكانه فى هدوء يلفه السكون
والصمت ! ولكن ولدا ليبيا يعمل صحفيا لا أذكر أين ، اسمه الفيتورى ،
ولا أذكر اسمه الأول ، جاءنى رغم كل شيء ، وخرجت معه ذات مساء إلى
قاعدة هويلس ، واستطعت أن التقط صورة لمواقع الصواريخ المصوبة نحو
مصر . قلبى مع العسكرى المسكين الذى سمح لى بالدخول ، لابد أنهم أذابوه
كقطعة الصابون أو نشره كلوح خشب بلوط - مع الاعتذار لأخيها على بلوط .

وقضيت فى ليبيا أسبوعاً أحاول أن أنفذ إلى داخلها دون جدوى . صحيح أننى
دخلت الأرض الليبية ، ولكنى لم أدخل ليبيا . وكيف أستطيع وليبيا نفسها غير
موجودة وليس لها حضور ؟! الحضور كله لبطانة الملك السنوسى ، وتستطيع
أن تراها فى صالة قمار فندق البحر المتوسط . والحضور كله لضباط القاعدة
الأمريكية ، وتستطيع أن تراهم فى كل وقت . والحضور كله لرجال الأمن وهم
وراءك على الدوام . وفيما عدا ذلك لا حضور لأحد على الإطلاق . الشعب
الليبي خلف أسوار السكون والصمت يأكل المبكبة والبازين ، وضباط الجيش
الليبي الوطنيون نصفهم فى لندن بدعوى العلاج أو الدراسة ، والنصف الآخر
فى ليبيا تحت الرقابة . ومن الذى يراقب ؟ مخابرات أمريكا وبريطانيا وفرنسا !
فلكل منها ثلث مساحة ليبيا على وجه التقريب !.

ولم أستطع أن اتحدث مع واحد ليبي ، أو أدخل بيتا ليبيا على الإطلاق !
حتى المصريين الذين كانوا فى ليبيا وقتئذ ، كانوا جميعا - وبلا استثناء - هاربين
من حكم عبد الناصر ، وكانت الغالبية العظمى من الإخوان المسلمين ، وقلة
منهم من رجال العهد الملكى الذى قضت عليه ثورة يوليو ، وقد استطاعوا
الإقلاط من مصر بثرواتهم وعاشوا فى طرابلس عيشة أقيال الهندو ! حتى
المتاجر والمخازن لا ترفع لافتات عربية ، وإنما كل اللافتات مكتوبة باللغات

الأوروبية، وخيل إلى أننى أسير فى شارع من شوارع روما أو لندن أو باريس . وثروات الشعب العربى فى ليبيا تنهب بلا حساب ، ودود أوروبا الخبير يمص دم الشعب بلا رحمة ، وتحول الشعب فى النهاية إلى جثة هامة بلا حراك ، كل (سلوته) فى الحياة احتساء أكواب الشاى فى النهار ، وتسكين الدماغ فى الليل بأنفاس الحشيش المعطرة أو أكواب البيرة المثلجة ، والاستغراق فى أحلام سعيدة عن النفط الذى بدأت روائحه تملأ الخياشيم فى أنحاء البلاد .

وكما حدث فى أمريكا عند ظهور الذهب ، تدفق الآلاف من الليبيين إلى المدينة ، وقد هجروا القرى والحقول وتركوا قطعان الماشية تسرح بلا رعاة فى البرارى ، وجاء الجميع تسبقهم صرخة مدوية : النفط . ومطلبهم الوحيد : الوظيفة . وبدلاً من أن تزجرهم الحكومة ، فعلت العكس ، وشجعت المهاجرين على الإقامة فى المدينة ، وألحقتهم جميعاً بمهن غير منتجة ، فراشين فى دواوين الحكومة . وفى بعض المدارس فى طرابلس بلغ عدد المدرسين خمسة عشر مدرساً ، وعدد التلاميذ مائة طالب ، وعدد الفراشين مائة وخمسين فراشاً . وحتى هذا العدد الهائل لم يكن يؤدى عملاً ما فى المدرسة ، ولكنهم كانوا يكتفون بالجلوس فى حلقات فى فناء المدرسة يشربون الشاى أحياناً وينامون أغلب الأحيان ، وفكر عدد منهم فى زيادة دخله فسجل نفسه فراشاً فى أكثر من مدرسة وفى عدد آخر من الدواوين .

وبدأت ليبيا بعد ذلك التاريخ تستورد أكلها من الخارج ، حتى الفجل ! ولكن .. لاشئ يهم مادام الملك أديس مهتماً بمزرعة الخيول الملكية ، والأمير الرضا يتأمل النجوم من شرفة قصره المطل على البحر المتوسط ، ووزير الداخلية صوفى - الذى كان يعمل محصلاً فى ترام الرمل فى الإسكندرية - يسيطر على الأمن فى الشارع، ويعد أنفاس الناس فى البيوت ، ويحرس منشآت البترول من أن يقترب منها شبح كلب شارد ! ولقد كانت المؤامرة كبيرة ورهيبة ، ولم يكن فى ليبيا كلها من يستطيع منعها . وكانت الخطة جهنمية وهى : إفراغ الأرض الليبية من فلاحها وإحاقهم بوظائف فراشين فى

الحكومة حتى لا يكون هناك أدنى ارتباط بين الليبي وأرضه ، وحتى يسهل بعد ذاك اقتلاعه من الأرض الليبية كلها . وكان الملك السنوسى مشغولا بخيوله ، والأمير الرضا يكتفى بالتأمل ولسان حاله : رضا لمن يرضى ! والحكومة متواطئة مع الأجنبى ، وأعضاء الحكومة ليس لهم فى ليبيا شئ يخافون عليه ، وكل ما يملكونه فى ليبيا أودعوه خزائن خارج الحدود .. المهم أن تستمر الأحوال على هذا النمط أطول وقت ممكن ، والمهم أن يستنزفوا من دم الشعب أكبر كمية ممكنة!.

ولذلك لم يلحظ أحد شيئاً مريباً ، وطائرات فرنسا وانجلترا تحتشد فى قاعدة العظم على حدود مصر ! ولم يستنكر أحد من السادة فى ليبيا ما حدث بعد ذلك عندما قامت هذه الطائرات بضرب القاهرة أيام العدوان الثلاثى ! بل احتفل بعض الوزراء وبعض الحكام فى ليبيا بانتصار الحلفاء على (العدو المصرى) . غير أن شعب ليبيا العربى كان له موقف مختلف : هبت الجماهير فى حماسة أصيلة تحرق كل شئ يملكه الأجانب فى بنى غازى وطرابلس ، وحاصر الناس أحياء اليهود فى المدينتين ، وهاجموا القواعد العسكرية والسفارات الأجنبية وأشعلوا النار فى العلم البريطانى والعلم الفرنسى ، وقتلوا عددا من جنود الاحتلال كانوا يقتنزون على الشاطئ فى اللحظة ذاتها التى سكنت فيها إذاعة القاهرة! وهبت الحكومة هى الأخرى ف اتخذت اجراءات مضادة : ألقت القبض على الكثيرين ، وعوضت الأجانب عن ممتلكاتهم التى احترقت ، واعتذرت عن أرواح ضحايا جنود الاحتلال التى أزهقت . وزيادة فى احتياطات الأمن ، منعت الحكومة إذاعة نشيد (الله أكبر) - وهو النشيد ذاته الذى سيكون نشيد ليبيا الوطنى فى مستقبل الأيام . وزيادة فى الأمن والأمان ، استوردت حكومة السنوسى عمالا من ايطاليا ومن مالطة ومن البرتغال ومن تشاد ، ولكنها منعت مرور عمال مصر عبر الحدود ، وقامت بترحيل من كان موجودا منهم فى ليبيا .

وخلال السنوات الست التى تلت العدوان الثلاثى ، تحولت الأراضي

المزروعة إلى أراض بور ، وأصبح الجبل الأخضر جبلا من التراب والصخور ، ونفقت قطعان الماشية ، -التي كانت ترعى وحدها في الخلاء . وحدثت معجزة لا أظنها حدثت قبل ذلك في أى مكان: ليبيا التي كانت تصدر الضأن إلى الخارج ، أصبحت ولأول مرة تستورد اللحوم من تركيا ومن إيطاليا والصومال . وتحولت ليبيا بفضل الحكم الأحق إلى ثلاث دول : دولة فزان وتحكمها فرنسا ، ودولة بنى غازى وتحكمها إنجلترا ، ودولة طرابلس وهى تحت الحكم الأمريكى . وخيل للمراقبين فى كل أنحاء العالم أن ليبيا قد ماتت ، وأن الشعب الليبى فى غفوة مثل غفوة أبناء الرقيم . وأطلق الجنرال لاکوست - الذى كان يحكم الجزائر - نكتة شهيرة عن ليبيا عندما سأله صحافى فرنسى عن مدى خطر الثورة العربية الآتية من الشرق على الوضع فى الجزائر .. ضحك لاکوست السمين وقال : « بيننا وبين الشرق العربى أرض ميتة ، وهى موصل غير جيد للحرارة ، وهى كفيلة بقتل كل شىء يعبرها أو يقيم عليها : الأشخاص والمبادئ والأفكار ، ونحن نعيش هنا خلف ساتر يحمينا ويوفر لنا الأمان! » . وكانت ليبيا هى الأرض الميتة التى عناها الجنرال لاکوست ، وهى عبارة فيها الكثير من الواقع والكثير من سوء الفهم . فقد كان لاکوست ينظر هكذا إلى الحكومة وإلى السلطة ، لكن نظره الضعيف لم يستطع أن ينفذ إلى الأعماق . وتحولت ليبيا إلى أضحوكة فى نظر الجميع ، لدرجة أن أحد الصحفيين العرب عندما قرأ « انقلاب عسكري فى ليبيا » ، ظن أن عسكريا ليبيا قد انقلب على الأرض أثناء سيره فى الطريق .

ولكن رغم الماء الأسن والظلام المخيم والموت الذى يرفرف على رؤوس الجميع ، ذهبت إلى سوق طرابلس واشتريت بعض الأغراض من تاجر ليبى ظل نائما على جنبه وأنا أفتش فى المحل عما أريد . وعندما حاولت أن أنقذه الثمن ، اكتشف الرجل أننى مصرى وأننى زائر فى طريقى إلى وطن أبو خالد ، وأقسم الرجل ألف مرة أنه لن يتقاضى أى ثمن . وأكثر من هذا ، أقسم ألف مرة أن أشرب معه الشاي قبل أن أغادر المحل . وقبلت شاكرا اعتقادا منى أن الشاي

فى طرابلس مثل الشاى فى أى مكان على ظهر الأرض . وكانت الساعة الخامسة بعد الظهر عندما بدأنا حفلة الشاى . وعندما خرجت من المحل كانت الساعة قد بلغت العاشرة ، وكان الأخوة الليبيون لم ينتهوا من شرب الشاى بعد . فأنتت تبدأ بالشاى الأسود ، ثم الشاى الأحمر ، ثم الشاى الباهت ، ثم تعود إلى الشاى الكحلى ، ثم الشاى الأزرق ، ثم الشاى الوردى ، ثم الشاى الأحمر ، وهكذا تتذوق كل الألوان . ومع كل لون حكايات تروى وأحاديث تقال ، ولكن لا أحد يسمع لأن الجميع مشغول بشرب الشاى .

ولقد تركت ليبيا ذات يوم من ١٩٥٧ وأنا واثق أنني لن أعود . لقد كان كل شىء يوحى بأن ليبيا قد ضاعت إلى الأبد . وإذا كانت الجزائر قد ضاعت بفعل فرنسا وفلسطين ضاعت بعدوان إسرائيل، فليبيا ضاعت بسبب خيانة بعض حكامها . ولكن لأن الليالى دائما حبلى ، ولأنها أيضا تلد كل عجيب ، حدث عكس ماتوقعه الجميع . وذات صباح من عام ١٩٦٩ وقعت الواقعة فى ليبيا . ولم يكن بيان السلطة الجديدة بيانا للثورة بقدر ما كان تأشيرة دخول للعبد لله للعودة إلى ليبيا . وكان مجيء الثورة هو هدية الأقدار للأمة التى انتكست فى حرب ١٩٦٧ ، وكان علامة على أن هذه الأمة قد تنام أحيانا ولكنها لاتموت ، وأنها قد تمرض أحيانا ولكنها قادرة دائما على المقاومة ، وأنها أقوى من الشلل ومن العجز .

وإذا كانت رحلتى الأولى إلى ليبيا تمت فى ظل الملكية ، فإن رحلاتى إلى ليبيا بعد ذلك تمت فى ظل الثورة . والغريب أننا نحن العرب نصنع نفس الأشياء فى ظل جميع الانظمة المختلفة ، ولذلك يخيل للعبد لله أحيانا أننا نحن العرب لا نعرف إلا نظاما واحدا للحكم ، ولكننا نطلق عليه عدة أسماء . نظامنا العربى من واقع التجربة المرة هو نظام (كبير العائلة) الجالس على الدكة، فى يده اليمنى سيف وفى يده اليسرى كيس منتفخ بما فيه من ذهب وفضة . ونحن نطلق على هذا الكبير الجالس على الدكة أحيانا لقب ملك، وأحيانا لقب شيخ، وأحيانا لقب رئيس . ولكن الألقاب فى بلادنا ليس لها مدلول وليست ذات مغزى ،

فجوهر الحكم واحد فى ظل جميع الأنظمة وتحت جميع المسميات فى عالما العربى . هى قبائل سياسية، الأمر والنهى فى يد شيخ القبيلة ، وليس لأفراد القبيلة إلا السمع والطاعة وكتابة التقارير اليومية . والخلاف بين أحزابنا ليس خلافا فكريا ولكنه ثأر ، ولايضيع ثأر وراءه مطالب . ولذلك أيضا طبقنا الشيوعية بأسلوب عربى ففشلت، وطبقنا الاشتراكية بأسلوب عربى ففشلت ، وحاولنا تعريب الرأسمالية ففشلت. والسبب هو نظامنا العربى الذى نطبقه فى كل مكان من بلاد العرب ، والذى يجب ماقبله ويلغى مابعده !.

ولقد ذهبت إلى ليبيا الثورة أكثر من مرة . وفى أول مرة تعرفت على الثوار وصدمت! مجموعة شباب ثوار أكثر سذاجة من عمى الشيخ عطوة مجذوب بلدنا وأكثر طيبة من خالتي ، لديهم أحلام وليس لديهم برامج ، وعندهم نية وليس عندهم قوة . وفى المرة الثانية تضاعفت الصدمة عندما اكتشفت أن الثورة عندهم تعنى الفوضى . وفى المرة الثالثة قررت أن أغادر ليبيا وألا أعود إليها. ولكن بين الزيارة الأولى والزيارة الأخيرة وقعت مصائب وحدثت أهوال وجرت أحداث ، ولذلك سنرجىء الحديث عنها ؛ لنروى لكم الوقائع بالتفصيل ومع التحليل .

والتفاح دوائر!

ولقد قدر للعبد لله أن يعود إلى ليبيا بعد الثورة، وكانت المرة الأولى خلال زيارة عبد الناصر لها. وكانت الثورة لا تزال بكرة، وأفق الثوار لا يزال محدوداً. كانوا ثواراً لا يزالون، لم يتحولوا بعد إلى رجال حكم.

وأذكر أنني كتبت بالتفصيل عن زيارتي الأولى للقذافي، وهو نزيل مستشفى طرابلس العمومي لإجراء عملية الزائدة الدودية. ولم أكن وحدي حين ذهبت إليه، ولكني ذهبت مع الزميل الكبير الأستاذ أحمد بهاء الدين.

واكتفينا في البداية بتسجيل أسمائنا في سجل التشريفات، وعندما استدرنا عائدين، وقبل أن نصل إلى باب الخروج، اكتشفنا أن هناك من يجري خلفنا، ينادى علينا بأعلى صوت، يرجونا أن نعود للقاء العقيد القذافي. لم يكن الذي يجري خلفنا أي أحد، ولكنه كان بشير هوادي عضو مجلس قيادة الثورة ومعه عضو مجلس ثورة آخر هو محمد المقرئ. وعدنا، الأستاذ أحمد بهاء الدين

وأنا، ودخلنا حجرة القذافي، ولم أصدق أنها حجرة الرجل الذي قلب الأوضاع في ليبيا، وطرد الملك السنوسي منها، وجلس مكانه فوق القمة العالية. لم يكن في الحجرة شيء إلا سرير عادي من سراير المستشفيات، وبجانب السرير منضدة صغيرة مدهونة بطلاء أبيض، وعلى المنضدة إناء زجاجي به ماء، وكوب صغير به عدة ورود، وجهاز راديو صغير، ثم لا شيء بعد ذلك. وكان القذافي نفسه يتمدد على السرير، مرتدياً بيجامة عادية مقلمة، وقدماه عاريتان. وعندما أبصرنا فهقه عالياً، ورفع يديه كأنما يهم باحتضان الهواء.

وجلسنا معه وفي نيتنا أن نقضى خمس دقائق معه، ولكنه كان يصر على الجلوس كلما استأذنا بالانصراف. وامتدت جلستنا معه إلى ساعة ونصف الساعة، خلالها ناقش أحمد بهاء الدين في مقال كان قد نشره على صفحات (المصور)، ثم التفت نحوي وقال: لا تغادر ليبيا قبل أن أغادر المستشفى، فلي معك حديث طويل، فلما استفسرت من العقيد عن موعد خروجه، أجاب: بعد أسبوعين. فلما اعتذرت له عن عدم إمكاني البقاء في ليبيا كل هذا الوقت، قال ضاحكاً: إذن سأصدر أمراً باعتقالك في ليبيا. ثم قال العقيد وهو يضحك: لقد قرأت لك كتابك الأخير (الشيخ لعبوط يتلعبط) وكنت أحياناً أضحك وأنا جالس وحدي، واضطرتت إلى ترك الكتاب، حتى لا يراني أحد وأنا في هذه الحالة فيتهمني بالجنون. ثم قال: سأعطيك فكرة الملك السنوسي، وستجد فيها ما هو أعجب وأغرب من يوميات الشيخ لعبوط. ثم قال لبشير هوادي: اذهب مع محمود إلى دار الحكومة واعطه فكرة الملك السنوسي. وعندما أبدى بشير هوادي بعض الفتور، قال له العقيد بلهجة أمرة: اذهب معه الآن واعطه المفكرة.

كان هذا أول لقاء لي مع العقيد، وغادرت ليبيا مع الأستاذ بهاء قبل أن يغادر المستشفى. كان ذلك في عام ١٩٦٩، ولم تقدر لي العودة إلى ليبيا مرة أخرى إلا في عام ١٩٧٥، وفي شهر أبريل بالذات، أي بعد ست سنوات من ذلك اللقاء الخاطف في حجرته بمستشفى طرابلس العام. ولقد كانت في ذهني

صورة رسمتها لليبيا الثورة، تصورت أن كل ليبي تحول إلى ثائر، وأن الصحراء تحولت إلى جنات خضراء، وأن طرابلس أصبحت قطعة من أوروبا، وأن ليبيا بالثورة دخلت القرن العشرين من أوسع الأبواب. ولذلك كانت صدمتي شديدة عندما اكتشفت أن كل شيء بقى على ما هو عليه، الشيء الجديد الذى طرأ على الحياة هناك هو مجموعة شعارات، وعدة ميكروفونات، وصراع السلطة بين الثوار على أشده. بشير هوادى مبعد عن السلطة، ومحمد المقرئ مات فى حادث مريب. صحيح أن هناك أشياء كثيرة تغيرت، منها أن الثوار تحولوا إلى حكام. فى الزيارة الأولى مثلاً، كان على الصحفى الذى يزور ليبيا أن يسدد فاتورة فندقه، لأن الثوار لا يرشون أحداً، ولا يطمعون فى استمالة أحد. ولذلك سدد حسابى فى الفندق صديقى أحمد الفتاحى، وسدد فاتورة الأستاذ أحمد بهاء الدين صديقه الأستاذ الغورى. ولم يكن الحساب إلا عدة دنانير قليلة، فقد عشنا فى نقش شديد يليق بنبض الثورة ونهجها. ولكنهم فى الزيارة الثانية استضافونى فى فندق الشاطيء. وهو فندق يقع على مساحة كيلو متر مربع، ولذلك فهو أشبه بالمطار منه إلى الفندق، واكتشفت أنه مضيئة لجميع المناضلين من كل أنحاء الأرض.

ولما كان المناضلون أشكالاً على ألوان، فقد اكتشفت أن بالفندق عدداً من المناضلين نزلوا بالفندق عند افتتاحه منذ عامين، ولم يغادروه بعد! وكان هؤلاء يتأمون نهارهم بالفندق، ويسهرون الليل فيه، ولما كانت الخمر ممنوعة، فقد اكتفوا بعصير الليمون، وهو عصير مستورد من إيطاليا، كان له طعم الليمون، وليس له خصائصه، شيء أشبه بالنضال الذى يقوم به هؤلاء السادة المناضلون. وكان البعض منهم حسن النية، والبعض الآخر قليل الحيلة، والبعض الآخر أرزقى معتاد على الاسترزاق، وجد ضالته فى فندق الشاطيء، وأقام على أمل أن تحقق له الأيام جزءاً مما يريد. الشيء الوحيد الذى كان يربط بين الجميع هو الأحلام: بعضهم يحلم بأمة عربية واحدة من الخليج إلى المحيط، وبعضهم كان أكثر تفاؤلاً، وهؤلاء كانوا يحلمون بوحدة من المحيط إلى المحيط، من المحيط الأطلنطى إلى المحيط الهندى، والبعض الآخر كانت أحلامه تمتد إلى أبعد من

هذا، فيحلم باسترداد الأندلس والأسكندرونا، وبخارى، وسمرقند، ولم لا؟
والثورة في ليبيا قائمة والكفاح دوار! وسهرت ليلة واحدة مع المناضلين في
فندق الشاطيء، ولم أعد إليهم بعد ذلك قط.

واجتمعت بالعقيد ذات ليلة عاصفة ومطيرة في مكتبه بالقيادة العامة، العقيد
وأنا وليس معنا ثالث، وعندما سألتني عن أحوالي في فندق الشاطيء قلت له
ضاحكاً: الفندق عظيم، ولكن المناضلين فيه أكثر من اللازم. وضحك العقيد
وهو يقول: والله يا محمود عندنا مناضلون أكثر من حاجة الأمة العربية.
وبالرغم من أن الجلسة استمرت ساعات طويلة، وتشعب الحديث فيها، وذهب
إلى اتجاهات شتى، إلا أن العقيد طلب خلال اللقاء عدة طلبات محددة:

- أن أصدر جريدة في بيروت، فاعتذرت له بأن ذلك مستحيل لأنني سأقتل
في اليوم التالي لصدورها. وقال العقيد: ولكني سأحميك في بيروت. وقلت
للعقيد: أنا واثق أنك تستطيع حمايتي في بيروت، ولكن المأساة أن الخطر
لن يكون من جانب الرأسمالية العالمية، أو الامبريالية الاستعمارية،
أو الشواشي العليا للبرجوازية.. إلى آخر هذا الكلام الذي لا يضر ولا يفيد.
الخطر الحقيقي يا سيادة العقيد سيكون مصدره أصحاب الصحف اللبنانية.
فالجرائد التي من هذا النوع لها أصحابها، وسوق الصحف الخاضعة لنفوذ
الأنظمة العربية لها زعماء وآباء روحانيون، وهم مستعدون لصنع كل شيء
وأى شيء لمنع الغرباء والمتطفلين.

- أن أعيش في طرابلس، وأكتب في جريدة ليبيا اليومية، وهي جريدة الفجر
الجديد. ومصيبة العبد لله أن النكتة تحبك معي أحياناً، وقد حبكت معي في
تلك اللحظة فقلت له: اكتب فين في الفقر الجديد؟ ويبدو أن النكتة لم تعجب
العقيد فغاب عني فترة، وغاب بعيداً عن الحجرة التي كنا نجلس فيها،
وتبدلت ملامح وجهه وبدأ عليه أنه يكظم غيظاً شديداً في داخله.

- أن أصدر كتاباً عن السادات، وعن حقيقة ما دار قبل وحول وأثناء يوم ١٥

مايو الشهير. وأفهمت العقيد أن الوقت لم يحن بعد لكشف أسرار هذا اليوم العجيب، وأننى سأكتب هذا الكتاب عندما تأتى الفرصة ويحين الوقت المناسب.

وعندما انتهت المقابلة فى الفجر ودعنى العقيد عند الباب الخارجى، وقال: هذه بلادك تستطيع أن تقيم فيها كما تشاء، وتستطيع أن تغادرها كما تشاء، وسأراك مرة ثانية عما قريب. ولكن مقابلتى له لم ترقه بالتأكيد. كنت صريحاً أكثر من اللازم وجلياطاً فى بعض الأحيان، وشعوت بفتور من جانب المسئولين الصغار الذين كانوا يبدون للعبد الله عواطف مبالغ فيها فى أول أيام الزيارة. وزاد الفتور عندما دعونى إلى ندوة فى الإذاعة، وحضرت الندوة بالفعل، ولكنى اعتذرت عن الكلام. ولأنه رب ضارة نافعة، فقد كان فتور هؤلاء المسئولين الصغار سبباً فى الإقلال من الزيارات التى كانوا يقومون بها للعبد الله، ووفر هذا الفتور وقتاً للعبد الله لكى يسرح فى الشارع الليبى.

كان دليلى إلى الشارع الليبى، محامى فى الأربعين من العمر، وهو خريج كلية الحقوق المصرية، وكان يتصور أن المحاماة هى أرقى مهنة فى الوجود، وأن المحامى هو رسول الله على الأرض. وكان يعيش على أمل واحد، هو أن يعيش حتى يرى اليوم الذى يتحرر فيه الشعب الليبى من حكم السنوسى؛ ليتولى الشعب حكم نفسه، وليعيد صياغة الحياة على أرض ليبيا وعلى النحو المطلوب. وكارثة المحامى الشاب أنه عاش حتى رأى ذلك اليوم، وعاش حتى جاء (سنوسى) آخر أصغر سناً، ويرتدى زياً مختلفاً، ويقود ليبيا فى مهمة ليست مؤهلة لها، ولم يرشحها أحد للقيام بها! ومأساة المحامى الشاب أنه عاش حتى رأى المحاماة مهنة غير مرغوب فيها، وحتى رأى المحامى مجرد صعلوك فضولى طغىلى لا يريده أحد.

ودخلت مع المحامى الشاب عدداً من البيوت الليبية، من مختلف الصناعات والطبقات. قضينا ليلة فى بيت محامى أكبر سناً، وقضينا ليلة أخرى فى بيت فلاح، وقضينا ليلة ثالثة فى بيت صحفى مفصول من الخدمة وممنوع عليه

العمل فى مهنة الصحافة، وقضينا ليلة حافلة فى بيت تاجر يبيع الملابس المستوردة من إيطاليا. وعلى اختلاف الصناعات والرتب كان الجميع يتكلمون لغة واحدة، ويشعرون بنفس المرارة، ولهم أمنية واحدة وهى: أن يغادروا ليبيا اليوم قبل الغد، وأن يذهبوا إلى أى مكان.. لا شىء يهم. وأدركت من خلال الدردشة مع الجميع، أن أحداً فى ليبيا لا يستطيع أن يتنبأ - حتى ولو كان عرافاً - ما الذى سوف يأتى به اليوم، ولا ما الذى يخبئه الغد؟ ولكن الحياة تمضى بهم دقيقة بدقيقة، وثانية بثانية.

وجهاز التلفزيون هو الذى يصدر القوانين، وهو الذى يسن الضرائب، وهو الذى يذيع أخبار الإعدامات التى تمت بالأمس! ويفاجأ المواطن الليبى وهو جالس أمام التلفزيون، بأن أحد أقربائه أو أحد أصدقائه أو أحد معارفه قُتل. ليه؟ وما هى التهمة؟ وأين جرت المحاكمة؟ ومن هو القاضى؟ ومن هم الشهود؟ وما هى الأدلة؟ كل هذا لا أحد يعرفه، وما جدوى أن يعرفه أحد؟ يكفى أن الإعدام قد تم تنفيذه، ومن فضل الله أن التلفزيون يذيع الخبر على الناس!.

وعندما أمعنت النظر فى التجربة الليبية أدركت أن التبسيط هو مأساتها. فالزعيم عبد الناصر كان زعيماً للعرب لأنه حاول توحيدهم، إذن.. فليحاول الزعيم الآخر توحيد العرب أيضاً. وما دام يحاول، سيصبح حتماً زعيماً. والزعيم عبد الناصر كان زعيماً وطنياً لأنه حارب الاستعمار، إذن.. فليحاول الزعيم الآخر محاربة الاستعمار، وما دام يحارب - ولو حتى فى الإذاعة - فقد صار زعيماً وطنياً! وإذا كان فى العالم نظريتان، الشيوعية والرأسمالية، فلماذا لا يكون هناك نظرية ثالثة؟ ويكفى أن تكتب النظرية، وأن تُطبع فى كتب ملونة، وتُردد فصولها فى الإذاعة، ليصبح صاحبها هو زعيم القوة الثالثة! وهى عملية عبيطة أشبه بأن يقوم الممثل عادل إمام بأدوار يوسف بك وهبى، أو يتدرب فاروق جعفر ليأخذ مكان مارادونا، أو ينهك الفيلسوف زكى نجيب محمود فى التدريب لينازل البطل محمد على كلاى! فالزعيم عبد الناصر صار

عبد الناصر لأنه كان فى مصر، ومصر لها دور تلعبه منذ قديم الأزل، وستظل تلعبه إلى أن يشاء الله. والعبد لله مثلاً يمكنه أن يصبح بطل العالم فى يوم من الأيام.. ولكن فى لعب الكوتشينه! أما فى المصارعة والملاكمة وشد الحبل، فالمحاولة لن تكون أكثر من عملية جنون، ولن تؤدى فى النهاية إلا لمستشفى الصدر، وعلى أحسن الفروض، مستشفى الخانكة!.

وبعد عدة مشاوير فى الشارع الليبى أدركت عمق المأساة وفداحتها.. كانت الشوارع خالية تقريباً، وفى بعض الأماكن كان هناك زحام. فإذا اقتربت من الزحام اكتشفت أنهم جميعاً وافدون من مصر، جاءوا إلى ليبيا سعياً وراء الرزق. وعجبت لهذه المحاولات المستمرة لحشد الجماهير. فأين الجماهير التى تريد هذه الأجهزة أن تحشدها؟! الجماهير الليبية؟! إذا كان المقصود هؤلاء، فملعب كورة واحد يكفى لحشدهم! هل هى الجماهير المصرية الموجودة فى ليبيا التى يريدون حشدها؟ الحقيقة أن هناك خطأ فى التحليل بالنسبة لهذه الجماهير، ليس فى ليبيا وحدها، ولكن فى أماكن أخرى كثيرة. فهذه الجماهير التى تركت مصر إلى بقاع شتى فى الأمة العربية، هدفها الأول هو البحث عن عمل، والسعى وراء الرزق، ومحاولة تحسين الأحوال. ولكن بعض فلاسفة النظم العربية إياها يتصورون أن هذا الكم الهائل من الجماهير، لم يخرج فقط من أجل الرزق، ولكن فى أعماقه ثورة مكبوتة ضد الأوضاع فى مصر، فهم ثوار دون إدراك، وهم مناضلون دون وعى. وكان نتيجة هذا التحليل الخطأ، فضائح ومصائب وأخطاء سياسية فادحة.. ومع ذلك لا يتعلمون! .

وكان أعظم مثال على خطأ التحليل من جانب النظم إياها هو حزب الكهرباء. وكان بطل حزب الكهرباء المصرى هو رجل اشتغل خادماً فى مكتب عبد الناصر. وكانت مهمته فى المكتب هى تقديم الشاي والقهوة، وفتح الباب للضيوف والزوار. وفى زمن السادات هاجر الرجل من مصر وتسكع فى بلاد كثيرة فى العالم العربى، وأخيراً اصطاده نظام عربى من إياهم، فصار

الرجل زعيماً لحزب مصرى فى المنفى، يرفع شعارات ثورية وتقدمية، ويشجب كل المخططات الاستعمارية والمؤامرات الإمبريالية، ويدعو إلى قيام الثورة العربية.. وبقيادة حزب الكهرباء! ولكن ما هو سر تسمية الحزب بحزب الكهرباء؟ السبب أنهم بحثوا عن وسيلة لتمويل الحزب، دون أن يتورط النظام الذى يرعاه مباشرة فى هذا التمويل. وهداهم التفكير إلى إنشاء شركة كهرباء لتمويل هذا الحزب الحديدى، والذى كانت لجنته المركزية تتألف بالإضافة إلى الخادم إياه، من مهندس أرزقى، ومحام أرزقى، وشاب يشتغل بالسياسة باعتبارها أسهل طريق للرزق. وعندما وقع حادث المنصة يوم ٦ أكتوبر عام ١٩٨١، أعلن رئيس حزب الكهرباء مسئوليته عن الحادث، وتفرغ عدة أيام بعد ذلك للإدلاء بأحاديث ثورية، عن رأيه فى كل المشاكل، من أول مشكلة البحر الكاريبى، وإلى مشكلة فيتناو!! حتى شركة الكهرباء التى أنشأت خصيصاً لتمويل الحزب الحديدى اكتشفوا أنها سجلت فى جزر البهامز، وباسم زعيم الحزب وزوجته والمهندس الأزرقى وحرمة!.

ليبيا المسكينة هى الأخرى وقعت فى هذا المطب، وأنشأت عدة أحزاب مصرية ثورية وعلى غرار حزب الكهرباء، كان أشهرها حزب تحرير مصر، ومن المضحك حقاً أن أعضاء هذا الحزب يحرقون الآن بعض الصحف داخل مصر وخارجها.

المهم عشت فى ليبيا أياماً أتناول المبكبة والبازين مع أفراد الشعب الليبى، وأغادر الشارع مسرعاً مع حلول المساء؛ فهكذا يتصرف الشعب الليبى، وكان حظر التجول مفروض عليه. ومنذ حلول المساء لن تجد ليبيا فى الشارع، ومن يقبض عليه فى الليل ولو كان فى طريقه إلى الطبيب، فسينام فى السجن مدة قد تصل إلى أسبوعين، هذا إذا كان الليبى وديعاً وليس من هواة المشاكل. أما إذا اشتبك مع الشرطة فى عراق، أو سب أحدهم، أو تهور فركل أحدهم، فالنتيجة الحتمية هى إذاعة اسمه ضمن قائمة الإعدامات فى التليفزيون.

وفى تلك الأيام التى عشتها فى ليبيا، والتى امتدت ثلاثة أسابيع بالتام

والكمال، اكتشفت أيضاً أن السلطة التي تحكم ليبيا ليست واحدة، ولكنها عدة سلطات. فبينما أبدى بعض المسؤولين الصغار فتورهم نحوى بعد لقائى بالعقيد، أقبل على العبد لله مسئولون آخرون صغار أيضاً، ولكنهم يعملون فى أجهزة منافسة. فهناك فى ليبيا أكثر من دولة، وأكثر من حكومة، وأكثر من مسئول. وقد تلقى حتفك ليس لأنك معارض، ولكن لأنك تعمل مع مسئول منافس يدبرون لخلعه أو تحجيمه. وكم من مسئول ليبى كان فى القمة، ثم هوى فجأة إلى القاع، وكم من مسئول كان فى القاع، ثم طفا فجأة على السطح. صراع السلطة على أشده بين الجميع ولن يتوقف قط، لأنه الأساس الذى تقوم عليه قيادة العقيد، كما أنه الضمان الوحيد لبقاء العقيد فوق القمة.

مأساة نعم، ولكنها مأساة متشابهة ومتكررة فى أنحاء الوطن العربى، ضحيتها الوحيدة هو المواطن العربى. وتخسر الأمة بعض أجزائها، وتفقد خطاها على الطريق، بسبب ممارسات مجنونة، ولكن كل شىء يهون طالما أن النظام موجود ومستمر. والإذاعة كفيلة بتغيير الحال، فالثورة مستمرة والوحدة على وشك القيام، والرايات مرفوعة والمعارك مستمرة، والكفاح دوار!.

ما الفرق بين النظام أيام السنوسى والنظام أيام مؤتمر الشعب العربى؟ لا شىء سوى أن أيام السنوسى كانت الحياة روتينية وخاملة وميتة ومملة، لا يقطع هذا الملل إلا مجيء شهر رمضان أو حلول عيد الأضحى. فى عهد اللجان الشعبية الحياة مخيفة ومروعة ومفرعة ومملة أيضاً وكئيبة، لا يقطع هذا الملل إلا صوت المسيرات الشعبية، أو حلول موعد تنفيذ الإعدام فى وجبة جديدة من الخونة، الذين لم يقرأوا الكتاب الأخضر، ولم يباركوا الوحدة مع مالطة، ولم يذهبوا مع الجيش الشعبى للقتال فى أحراش بوروندى. وبعد ثلاثة أسابيع غادرت ليبيا.. وإلى الأبد..

يتوقع الغريكيو !

الحق أقول : إننى انبهرت بشدة بجمال المغرب العربى ، جمال جاء نتيجة امتزاج الحضارة العربية بالحضارة الأوربية . هذا الامتزاج نتج عنه عصير سكلانس من حضارتين متناقضتين ومختلفتين على طول الخط ، حضارة أوربية ترى أن الحياة فرصة يجب أن يستمتع بها الإنسان ، ولأنها فرصة واحدة وأخيرة فلا بد للإنسان أن ينتهزها ويمصمصها حتى النخاع . وحضارة عربية إسلامية ترى أن الحياة مجرد كوبرى إلى حياة أخرى أجمل وأكمل . والسعيد هو الذى لا يتوقف عند هذا الكوبرى أو يتلأأ . المحظوظ هو الذى يمضى سريعاً وبعيداً عن هذا الكوبرى ؛ ليلقى بنفسه فى أحضان الجنة حيث الراحة الأبدية والنعيم المستديم .

ولذلك رأيت فى بلاد المغرب العربى جامعات علم كجامعة الأزهر ، ورأيت أحياء متعة ولا حى البيجال فى باريس ، ولا حى سوهو فى لندن . ورأيت فى

مدينة فاس المغربية رجالا أتقياء في مستوى السلف الصالح ، وعرفت في مدينة
المحمدية - المغرب أيضا - ما لم تره عين ولا حتى في هونج كونج . وتعرفت
في حي الزيتونة بتونس على رجال يقومون الليل ووجوههم في المصحف ،
ويسجدون النهار ووجوههم نحو القبلة . ورأيت في بوسعيد نسوان زلط ملط ،
ورجال من بتوع الفريكيكو . وتناقشت حول هذه الظاهرة مع بعض المثقفين من
المغرب العربي ، وخرجت من المناقشة بأن السبب في وجود الظاهرة وانتشارها
هو تأثير الشاطيء الآخر من البحر ، هناك في الأندلس حيث عاش العرب
مئات السنين ، ووصلوا في زحفهم حتى أبواب باريس ، ثم تراجعوا إلى
كتالونيا ، وحطوا رحالهم في الكوستابرافا ، وتمرغوا في حدائق الأندلس ،
وتمددوا في سهول غرناطة . هناك وعبر مئات السنين نشأ نموذج العربي
الجديد .

وأشهد أن العرب لم يضيعوا وقتهم هدرأ خلال القرون التي عاشوها في
أسبانيا . فقد أنتج الاندماج العربي الأوربي صنفاً من البشر ليس له مثيل في أي
مكان . وأي بنت أسبانية ستجد لها ألف بنت تشبهها في طنجة وتونس
والإسكندرية وبغداد والشارقة وصنعاء . والشعر المرخي على الأكتاف ،
والعينان اللتان تطلقان رصاصاً في القلوب ، والقوام الذي هو شيء بين غصن
البان وعصا الخيزران .

واللغة العربية لا تزال باقية . وكل كلمة أسبانية تبدأ ب (ال) التعريف هي
كلمة عربية أصابها بعض التحريف ، لكنها بقيت عربية على كل حال .
فالقاضي هو (الكالدي) ، والزيت (الثيت) ، والزيتون (الزيتونث) ، والثور
(الطورس) ، والوادي (الجوادي) ، والحجارة (اليخارا) ، والقصر
(الكازار) ، والحمراء (الهمبرا) . و (التروبيدور) معناها الطرب يدور .
و (الفلامنجو) معناها فلاح مغنى - أو المطرب الشعبي بلغة هذه الأيام .
و (أوليه) هي الله باللغة الأسبانية . وألوف من الكلمات العربية تجرى على
ألسنة أفراد الشعب الأسباني دون أن يدركوا حقيقتها .

ولكن الأسبان للأسف الشديد يشعرون بمرارة نحو العرب ، ويقولون : إن العرب فتحوا أسبانيا مرتين ، مرة بقيادة موسى بن نصير ومرة بقيادة فرنكو ! وأصل الحكاية أنه عندما نشبت الحرب الأهلية الأسبانية ، كان فرنكو قائدا عاما للفرقة الأسبانية في المغرب . وعبر فرنكو البحر إلى أسبانيا بقوات مغربية ، وعندما تحقق له الانتصار أباح لجنوده المغاربة مدينة مدريد لمدة أسبوع . ولا يزال الأحياء من أهل مدريد يذكرون تلك الأيام ككابوس ثقيل . وحفظ فرنكو الجميل لهؤلاء ، فاحتفظ بالفرقة المغربية كحرس خاص حتى يوم وفاته . وكان أهم قادة الجيش الأسباني مغربيا يدعى محمد مزيان ، وظل في منصبه حتى بلغ الثامنة والسبعين ، ولم يترك منصبه إلا بالموت ! .

وتجولت طويلا في الأرض التي كانت عربية ، أطوف بعواصم المجد القديمة ، قرطبة ، وطليلة ، والأندلس ، ومجريط (مدريد في لغة أهل الأندلس) . ولا تزال قصور العرب القديمة شاهدة على حضارتهم العظيمة ، ولا تزال جامعاتهم ومعاهدهم الموسيقية تحكى للأجيال قصة المجد الذي كان . مساكين القيسية واليمانية من أهل ذلك الزمان ، تحاربوا بالسيوف حتى تكسرت ، وبالرماح حتى تحطمت ، وبالنبال حتى تمزقت ، ثم تجاذبوا بالشعور والأظافر والأسنان ! .

يحكى أن حاكم الأندلس يوسف بن فهري ، كان له أعداء يناقسونه على السلطة ، ولكنه تمكن منهم أخيراً ، وذبهم جميعاً ، ثم أمر بأن يمد له السماط على جثث لم تبرد بعد . ويقال إنه تناول طعامه وهو جالس على الجثث الغارقة في الدماء ، وإنه تجشأ بعدما انتهى من طعامه وقال قولة شهيرة : « والله ما ذقت طعاماً أهناً من هذا قط ! » .

وقفت أتفرج على أطلال مدينة توليدو ، وفي العين دمة ، وفي القلب حشرات ! لقد رأيت مثل هذا المنظر كثيراً : في القاهرة القديمة ، وفي بغداد القديمة ، وفي دمشق القديمة .. الهندسة والرسوم والأطلال ذاتها ! وكدت أركع ، وأقبل الأرض التي صافحتها أقدام أبطال العرب القدامى عندما كانوا

رجالاً ، وأمعنوا غرباً إلى أن وصلوا إلى ميناء طولون الفرنسى ، ثم عادت أقدامهم فانسحبت من الأرض عندما تحول أحفاد هؤلاء الأبطال إلى أشباه رجال ، وظلوا ينسحبون منها فى كرم زائد إلى أن خرجوا منها فى مشهد نليل ، ولم يخلقوا لنا إلا الذكريات البغيضة مكلفة بالعار ! .

يالأيام التعيسة الحزينة التى عشتها فى الأندلس ، أكاد أبكى على المجد الذى ولى ، والعصر الذهبى الذى ضاع ! من هذه النافذة التى فتحها العرب ، تعلمت أوروبا الموسيقى ونقلت (ألف ليلة وليلة) ودرست تعاليم ابن رشد ، وتعلمت على الفارابى وابن الهيثم وابن خلدون ! تصوروا ... لو بقيت شبه جزيرة إيبيريا - أسبانيا والبرتغال - عربية حتى يومنا هذا فأى عز لنا ، وأى ظهر نستند إليه ؟ ولينا نتعلم من أخطائنا ! ولكن فلسطين ضاعت منا كما ضاعت الأندلس بسبب ألعيب نورى السعيد وغباء الملك فاروق ، وتدبير الخونة والجواسيس ، وجهل الأئمة فى اليمن ، وخيبة الجميع ! ثم ضاع النصف الآخر بسبب نظم الانفتاح والتصحيح والتلقيح ، والسعى إلى تسوية تضمن كراسى الحكم لحكام لفظتهم شعوبهم ، ومستعدين للتضحية بكل شئ إلا السلطة وصولجان الحكم ! وضاعت فلسطين أيضاً بفضل نظم ثورية اكتفت بإعلان الحرب ضد العدو فى الإذاعة ، ومقارعتة بقصائد الشعر ، وحشد كتائب الأناشيد ، وتحقيق النصر عن طريق الأغاني .

ولكن فلسطين رغم كل شئ ، تبقى جزيرة صغيرة محصورة داخل بحر العرب . وفى يوم ما ، فى شهر ما ، فى عام ما ، فى قرن ما ، سيخرج من أصلاب هذه الأمة زعيم (شارب من بز أمه) ، يوحد أمة العرب كما صلاح الدين ، ويرفع سيفه كما قطز ، يزحف بهم ليحرر القدس السليبية وعكا الأسيرة . ويأخذ الأجيال السعيدة المقبلة التى ستعيش فى ذلك العصر المجيد .

• • •

وياعمق الحسرة التى شعرت بها ذات يوم على شاطئ الكوستابرافا ،
التقيت ببنت أسبانية ترطن باللسان الأسبانيولى ولا تعرف غيره ، البنت اسمها
(فاتيما) ، وقالت تيمناً باسم القديسة سانت فاتيما . وعبثاً حاولت إفهامها أن
فاتيما اسم عربى وأصله فاطمة ، وأن القديسة إياها لابد أنها هى السيدة فاطمة
بنت النبى ، أو ربما هى فاطمة أخرى من شيخات المغرب المباركات ، وبعد
سقوط الدولة العربية فى الأندلس حولوا الشيخة فاطمة إلى سانت فاتيما ، تماماً
كما حولوا المساجد إلى كنائس ، وحولوا دور العلم العربية إلى مزارات
للسياح . البنت شكلها عربى ، لو سارت فى شوارع المغرب ، أو مشت فى
شوارع القاهرة ، أو تسكنت فى شوارع بغداد ، لما استطاع أحد اكتشاف أنها من
غير أهل البلاد .

عزمتنى البنت على أكلة فى بيتها ، أكلة دسمة ولذيذة يطلقون عليها اسم
(بهية) ، هى نفسها الأكلة العربية الشهيرة فى المغرب ، والتى يطلقون عليها
اسم (بقية) . وهى عبارة عن تورلى أو خليط من عدة خضروات وأصناف
لحوم : بطاطس على قلقاس على سبانخ على قرنبيط على كوسة على طماطم
على جزر على بصل على ثوم ، على قطع من لحم الضأن ولحم الدجاج ولحم
السّمك ، على زيت على لبن على ملح على سكر على جبنة على مربة ، على
أى شىء وعلى كل شىء ، فهى بواقى من كل الأصناف والأنواع ، وبدلاً من
التخلص منها بإلقائها فى صندوق الزبالة ، اخترعت المرأة العربية هذه الأكلة
اللذيذة الظرفية ، التى أشهد أننى لم أذوق مثلها إلا فى طاجن الحاج سرور أبو
هاشم وفى عزبة صديقى الفلاح ابراهيم نافع . وعندما قلت هذا الكلام لشقيقة
البنت فاتيما - وكانت تعرف الانجليزية - نفت ذلك بشدة ، وأكدت أنها أكلة
أسبانية ، وأن عرب أسبانيا نقلوها إلى المغرب بعد رحيلهم إلى هناك . وقالت
البنت لتأكيد رأيها : إن المرأة الأسبانية حريصة ، بينما المرأة العربية مسرفة .
ثم التفتت نحوى وتحفرت كنمر شرس وقالت : ألم تر العرب فى أسبانيا اليوم ؟
إنهم هناك على الشواطئ يعيشون جميعاً كملوك القرن السادس عشر ،
ويعثرون الأموال ، كما يبعثر الأطفال ذرات الرمال على الشاطئ . وسكت

لم أتكلم . صدقت البنت الأسبانية ، فمن ير عرب اليوم خصوصاً في أسبانيا ، فلن تقدر قوة على ظهر الأرض أن تقنعه بأن عرب اليوم هم أحفاد عرب الأمس الذين كانوا أشاوس ، وكانوا أبطالاً ، وكانوا فرساناً ، وأنهم فتحوا العالم بإيمانهم وبسيوفهم ! .

ويذهب عرب اليوم إلى أسبانيا فلا يقضون نهارهم إلا في النوم ، ولا يقضون ليلهم إلا في كازينوهات القمار ، ولا يرون من الأسبان إلا نماذج معينة ، هي دائماً نماذج من **بتوع الفريكيكو** ! .

وكم شعرت بغصة وأنا جالس في حلبة المصارعة أشاهد معركة بين الثور والإنسان . وهي لعبة أدخلها العرب إلى أسبانيا ومارسوها قروناً طويلة قبل أن تصبح علامة على الأسبان . وكل الأسماء المتداولة في اللعبة عربية ، (التورس) هو الثور ، و (الميتادور) - وهو البطل الذي يتولى الإجهاز على الثور بسيفه - أصلها كلمة عربية معناها الموت للثور . وكان بطل الحلبة ولا يزال ، يتقدم إلى المنصة التي يجلس فيها الوالى قديماً والمحافظ حديثاً ، ويطلب الإذن له بالإجهاز على الثور . وكان الوالى قديماً يرفع يده ويأذن له قائلاً : « الموت للثور » ، وحرّفها الأسبان مع القرون والسنون إلى (الميتادور) .

مأعق الشجن الذى تثيره فى النفس زيارة بلاد الأندلس ، البلاد التى اضطر العرب إلى الرحيل عنها بعد أن تمزقت دولتهم إلى إمارات وممالك ، وبعد أن تقاتلوا فيما بينهم حتى تكسرت الرماح والسيوف فتقاتلوا بالفتوس حتى تحطمت ، وتجادبوا بالشعور والأظافر والأسنان ، واضطر آخر ملوكهم إلى البكاء وهو يغادر الشاطئ الأسباني ، راحلاً فى مركب تعيس إلى الشاطئ المغربى .. بكى آخر ملوك العرب وهو يلقي آخر نظرة على الشاطئ الأندلسى ، فنهرته أمه بشدة وزجرته بعنف ، وقالت له : « ابك كالنساء على ملك لم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال ! » . مأحوجنا نحن العرب اليوم ، إلى أن يبكى كل فرد منا كالنساء ، على فلسطين التى ضاعت منا ، ولم نستطع أن نحافظ عليها كالرجال ! .

وإن طال السفر

وإذا كان المغرب العربى قد بهرنى بجمال الطبيعة والخضرة الدائمة كأنما هو ضاحية فى جنة عدن ، فقد هزنتى شبه الجزيرة العربية أكثر ، وبهرنى كل شيء هناك ، حتى البداوة والجهالة ، ونمط السلوك الذى كان سائدا فى عصور ما قبل التاريخ ! وبعد رحلة شاقة مملة مرهقة ، هبطت الطائرة فى أرض خلاء يقال لها مطار ، فى ركن من أقصى بقعة فى شبه الجزيرة . وبالرغم من أننا وصلنا فى الظلام ، إلا أننا لم نلمح أى أثر لأنوار المطار ، وخيل إلينا أننا نهبط هبوطا اضطراريا فى المحيط الهندى . وعندما استوت الطائرة تجرى على الأرض الصلبة ، هتفت من أعماقى كما هتف العربى القديم : « لابد من صنعا وإن طال السفر » ! .

هذه إذن صنعاء وكل شيء على حاله منذ جدنا آدم عليه رضوان الله . آسف واعتذر ، والاعتذار أتقدم به الى سيدنا آدم عليه السلام . لأنه لوقام من قبره وتجول فى أنحاء اليمن التى رأيتها وقتئذ لتحسّر على سوء الأحوال الذى تردت

اليه البشرية من بعده ، ولانفطر قلبه حزنا على أبنائه الذين يقاسون كل هذه الأحوال ! حتى الطبيعة ساءت عما كانت عليه عندما خلقها الله ! الجبال نفسها أضحت أكثر جهامة وأكثر قتامة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ! والشوارع .. أى شوارع ؟! أقصد المسالك ، مشقوقة هكذا بلا قصد ولا نظام ، كأنها دروب مهجورة داخل غابة انزلقت من ذاكرة الزمان ! ياللهول ، على رأى عمنا يوسف وهبى . هل هذه هي اليمن السعيدة ؟! وأى سعادة فى أن يحيا الانسان غارقا هكذا فى الوحل ؟! سابحا هكذا فى الصمت ؟! مخنوقا هكذا فى الخوف والرعب والاضطهاد ؟! .

وكان الملك أحمد ، أو الإمام أحمد ، أو سيف الإسلام أحمد ، جالسا على سرير الملك لحظة صافحت قدماى أرض اليمن . أو بمعنى أصح ، كان نائما على سرير الملك ، ولم يكن معه من أدوات الحكم إلا سيفه وبطشه . وكل مآثره فى سنوات حكمه السعيد ، وهو سعيد باعتبار اليمن سعيدة ، أقول كانت كل مآثره مئات من الرؤوس تولى قطعها بسيوف صدئة ، لدرجة أن القتل كان يرشو السيف لكى يختار سيفا أكثر حدة ! .

ولم يكن فى اليمن شعب ، ولكن كانت فيها قبائل . وكان رؤساء القبائل يؤمنون بأن الإمام أحمد فيه سر من عند الله ، فهو يعلم ماتهمس به الشفاه وماتخفيه الصدور ! ولكن اليمنى العاقل كان لا يخفى رأيه بل يجهر به حتى يقبض عليه الإمام ويقتله . وكان لحظة القتل يتقدم إلى السيف ، والبشر يطفح من وجهه ، والبسمة تحتل مكانا عريضا على شفتيه ! ويموت اليمنى العاقل آخر سعادة وانسجام ! ويحسده غيره من أهل اليمن ويحقّدون عليه لأنه مات تاركا إياهم فى جحيم الإمام ! ولم يكن فى اليمن إلا طبيب إيطالى واحد لزوم معالجة أسنان الإمام . ولم تكن فى صنعاء العاصمة إلا صيدلية واحدة تغلق أبوابها مع غروب الشمس ، فإذا أحس أحد اليمنيين بمغص أو بصداع ، دق أبواب قصر الإمام طالبا حبة أسبرين أو جرعة دواء ! .

وكان المواطن اليمنى إذا فكر فى السفر من مكان إلى مكان فهو إما فدائى

وإما مجنون ! وإذا التقى يمنى بآخر بعد الغروب فهو إما قاتل أو مقتول .
وكان الانجليز يحتلون اليمن الآخر . وكان الإمام يحتل اليمن الذى نزلنا فيه .
وأشهد شهادة حق لله وللتاريخ ، أن الاستعمار البريطانى كان أخف وطأة من
الاستعمار الإمامى ، وأن نظاما مثل هذا ليس له مثيل فى أى زمان أو مكان ،
حتى ولا أيام الهكسوس ! .

كانت المناسبة التى نزلنا فيها اليمن هى الاحتفال بالوحدة الورقية التى قامت
بين اليمن والجمهورية العربية المتحدة . ولكن حتى هذه الوحدة الورقية أفلقت
هؤلاء الذين يتربصون بالعرب الدوائر . وهؤلاء المتربصون أجنب أحيانا ،
وعرب أحيانا أخرى . والله فى خلقه شئون ! ويبدو أن الإمام أحمد قد استجاب
لإغراء الرشوة فأنشد يوم الاحتفال قصيدة من نظمه :

نريدها وحدة بيننا مبنية
على أسس بيننا مرعية
يكون عبادها المحبة والوئام
وأساسها حكم الشريعة والإسلام

وأضاف إليها أحد الظرفاء من عنده :

ويكون رئيسها جلالة الإمام
وأشرب كوكولا واتمدد ونام !

وألح على عقلى سؤال بلا جواب : هل هذه هى اليمن حقا ؟! هل هذه أرض
بلقيس وسد مأرب ؟! أمن هنا سارت الجحافل اليمنية تفتح الأرض فى سبيل
الله ؟! لقد أنجبت هذه الأرض على طول الزمان أشجع رجال العرب ، وأشدهم
بأسا على الإطلاق . واليمنى لا يعرف قلبه الخوف ، وهو إذا حارب دمر كل
شئ أمامه أو دمر نفسه ؛ لأنه لا يعرف الانسحاب حتى ولو كان (طبقا لخطة
موضوعة) ، كبلافات الحرب هذه الأيام ! طيب ... إذا كان اليمنى الفرد

لا يعرف الخوف طريقه إلى قلبه ، وإذا كان المحارب اليمنى لا يتقهقر على الإطلاق ، فلماذا إذن تقهقر اليمن الوطن بضع مئات الألوف من السنوات إلى الوراء ؟!! ولماذا انسحب اليمن الشعب لا يلوى على شيء ، حتى أشرف على هامش الزمان والمكان ؟! واختلست نظرة إلى الحصن الذى يتوقع داخله الإمام . إنه فرد واحد ، ولكنه حقق النصر الحاسم على شعب بأسره وألحق به هزيمة منكرة ، وفشل فى ذلك عشرات القادة والجيوش على مر الزمان ! من هنا يبرز دور الفرد فى التاريخ .

وعشت أياما فى صنعاء ، لم نر فيها شيئا ولم نتصل بأحد .. حتى الذين حاولنا أن نتحدث اليهم كانوا يفرون من وجوهنا كأنهم أصحاب يقرون منا حتى لا نصيبهم بالجرب ! وعدنا من حيث أتينا ، لم نتعرف على اليمن ، ولم نتعرف علينا اليمن ! ولكن ظلت اليمن ماثلة أمامى لا تبرح خيالى قط . وتصورت أننى لن أرى اليمن فى حياتى . ربما سنحت الظروف لأبنائى أو أحفادى .

ولكن ، لأن زمن المعجزات لم يذهب بعد ، فقد حدثت المعجزة : مات الإمام أحمد وتولى الإمام البدر وقامت الثورة فى اليمن ! ثورة فى اليمن ؟! هذا هو الذى حدث ، وفر الإمام فى ملابس النساء ، وقامت الدنيا فى العالم العربى ولم تقعد بعد ! ذهب جيش مصر ليحمى الثورة فى اليمن . وذهبت جيوش المرتزقة والخونة لتعيد عقارب الساعة إلى الوراء . وأتيح للعبد لله أن يذهب مرة أخرى إلى اليمن . ولكنها كانت يمن جديدة ومختلفة . كانت المعارك على أشدها والشهداء يسقطون كل يوم بالمئات ، وبعض القبائل حولت حرب التحرير إلى مباراة ، فيوم هنا ويوم هناك ! وبالرغم من المعارك والدماء والمآسى ، استطعت أن اتعرف على اليمن . وذهبت مع اليمنى إلى الجبهة ، ولمست بنفسى شجاعة اليمنى على الجانبين . وغبت عن الوعي مع اليمنى أمضغ نبات القات . وجلست على مائدة اليمنى التهم (أم الصحن) . وخرجت بنتيجة باهرة : إن اليمنى لا يزال هو اليمنى بكل أصوله وصفاته ، لم تستطع الأمراض والجهل وحكم الإمامة أن تقضى على جوهره ، وإن قضت على

هيكله ! صحيح أن الجلد أصبح على العظم ، ولكن الذكاء الموروث ظل كامنا يبدو في بريق العينين ، وعلى سطح الجلد نفسه !.

ولقد أتيت لى أن أشهد بعينى رأسى نبض الحياة ، وهو يعود بالتدريج إلى . جثة اليمن : مدارس جديدة ، ومستشفيات حديثة ، وشوارع شقت على عجل ، وساحات كانت أرضا مهجورة فى ظل الإمام . ورأيت أول جماعة من المهاجرين عادت إلى اليمن بعد الثورة . جاءت مستريية فى كل شيء ، لاتصدق أن الإمام قد انتهى . وهؤلاء الذين صدقوا نهاية الإمامة كانوا يعتقدون أن السلال هو مجرد إمام جديد حل محل الإمام الذى سقط !.

والتفت بفتاة فى عمر الورد ترتدى البنطلون وبلوزة على اللحم ، جاءت مع المهاجرين لتشهد بنفسها البعث الجديد فى اليمن . ولما أبدت دهشتى من وجود فتاة يمنية بالبنطلون ، قالت البنت وهى تضحك : لعلك لاتعرف أن البنطلون فى اليمن حق النساء ، أما التنورة فهى حق الرجل ! وقال لى ضابط مصرى كبير فى صنعاء : هذه حقيقة . وكانت أخطر إشاعة أطلقها رجال الإمام ضد جيش مصر تقول لأهل اليمن : انظروا إلى هؤلاء الجنود المصريين ، إنهم يرتدون البناتيل التى هى حق النساء ، إنها الدليل القاطع على أن هؤلاء الجنود أجانب وكفرة ، وليسوا من جنس العرب ! وقالت لى اليمنية المتبنطلة : أنا أعيش فى إفريقيا منذ عشرين سنة ، وغادرت اليمن وعمرى ثلاثة أعوام مع والدى الذى أثر الفرار من حكم الإمام إلى الغابات والوحوش الكاسرة . ولقد خرجنا من اليمن بلا شيء تقريبا ونحن الآن نملك ثروة لا بأس بها . والحق أقول : إن كل الذين هربوا من الإمام خرجوا بلا شيء تقريبا ، ولكنهم استطاعوا بعد فترة أن يصبحوا أثرياء للغاية . فاليمنى ذكى وشجاع وصبور وقادر على التكيف مع أى بيئة والعيش فى أى مجتمع .

منذ ربع قرن تقريبا كنت فى طنجة ، وكانت طنجة دولية ، وكانت تعيش فيها كل الملل والأجناس .. إلا جنس العرب : خوات على قفا مين يشيل ، وهنود بعدد النجوم ، وصينيون بعدد الحصى ، ويونانيون وقبارصة ، ويهود

أكثر من الهم على القلب ، وناس من مالطة ، وناس من جزر هاواي . ياميت ندامة على هذا البلد العربي ، ليس فيه عربى إلا سكانه وهم على مايبدو جميعا من اتباع المرحوم غاندى ، فلا ملابس ولا مأوى ولا طعام ! ودخلت السوق فى القصة ذات يوم وسألنى التاجر : هل أنت هندی ؟ وأجبتة بالنفى . فسألنى : هل أنت أسباني ؟ وأجبتة بالنفى . فسألنى : هل أنت إسرائيلى ؟ ولما بدا الاشتمزاز على وجهى ، قال إذن أنت عربى ؟ فلما أجبتة بالايجاب ، مد يده مصافحا وقال بلغة عربية سليمة : كيف حالك ؟ وظننته من أهل البلاد ، ثم اكتشفت بعد ذلك أنه أخ عربى من اليمن . قال لى الأخ عبد الواسع : نحن هنا حوالى ثلاثة آلاف يمنى يعمل أغلبنا فى التجارة ، وبعضنا يعمل فى مجال الحرف !.

مرة أخرى منذ عشرين عاما كنت فى زيارة خاطفة لهونج كونج ، وأردت شراء بعض الملابس ، ولكنى ترددت فى آخر لحظة . وعندما سألنى رفيقى فى الرحلة عن سبب ترددى ، قلت له بالعربية : يظهر أنهم حرامية وغشاشون، وضحك التاجر واكتشفت أنه من اليمن ! ما أكثر الأخوة اليمنيين الذين تصادفهم فى طريقك فى كل مكان فى لندن ووارسو وباريس ومالطة ومدريد . وكلهم تجار ، وكلهم آخر نجاح وآخر جدعنة ! واليمنى ظريف ولطيف ومهذب وناعم للغاية ، ولكنه أسد مفترس إذا لزم الأمر !.

كنت فى زيارة لعلى العواضى ، وكان وزيرا للحربية فى وقت ما بعد الثورة ، وكان الوزير فى جلسة قات مع بعض القادة ، حين دخل عليه ضابط برتبة صغيرة يبلغه نبأ القبض على أحد المفسدين . وقال الوزير على الفور : « بز رأس أبوه » ، وكان يقصد اقطع رقبته . ثم جلس يمضغ القات فى هدوء ! وعندما خرجنا من المنزل رأيت عددا من الصبية يلعبون برأس المفسد المقطوعة مباراة حامية فى كرة القدم !! وسألنى زميل فى الرحلة : الآن بدأت اليمن ، فكم من السنين تقدر لها لى تصبح جوهرة لها شأنها فى قلادة العرب ؟ قلت : هذا يتوقف على أحوال العرب ، إذا بقيت هكذا على حالها وظل الحال

هكذا على عفونته فلن تقوم لليمن قائمة . قال زميلي : ليه ؟ قلت : هذه قصة أخرى ! .



ولكن يبدو أن نظرتي إلى مستقبل اليمن كانت تحمل كثيرا من التشاؤم . فأحوال العرب ازدادت سوءا ، وربما لم يشهد العالم العربى عصرا أسوأ من هذا العصر الذى نعيش فيه . لم يقف تقسيم المغرب العربى عند حد المغرب والجزائر وتونس وليبيا فقط ، زاد الخير خيرين فنشأت دولة جديدة هى الصحراء، وأضيفت إلى حكومات العرب حكومة جديدة هى الحكومة الصحراوية . وبينما تضاعفت أغاني الوحدة ازداد التقسيم ، حتى وصل إلى حد تقسيم مدينة بيروت إلى شرقية وغربية .

وبالرغم من ذلك حققت اليمن معجزة بكل المقاييس . تخلصت اليمن من نظام العشائر والقبائل ، ونفضت عن كاهلها حكم الأئمة ، وتحولت صنعاء إلى مدينة عصرية ، وفتحت المدارس أبوابها لاستقبال ألوف الصبيان والبنات ، ودارت المطابع تطبع الصحف والكتب والبحوث العلمية . وشهدت اليمن طفرة فنية وصار للفن اليمنى مكان محجوز فى أجهزة إعلام الأمة ، وأصبحت اليمن سندا ودعما لقضايا العرب . وما أصعبها فى عصرنا الحديث ! معجزة نادرة الحدوث ، ولكنها فى اليمن حدثت . وهى لم تحدث بسهولة ، ولكنها تعرضت لهزات ونكسات ، وأوشكت أحيانا على الإجهاض . ولكنها تغلبت . بالرغم من ذلك . على ظروفها الصعبة . وعاشت اليمن التى كانت سعيدة تحاول صنع المستحيل لتصبح سعيدة من جديد . معجزة ... نعم ، تحققت بفضل شعب اليمن ، وأيضا بفضل العسكرى المصرى المجهول ، الذى مات على قمم الجبال هناك ، وفى سهول اليمن الفسيحة . والمعجزة الأكبر أن شعب اليمن لم ينكر فضل العسكرى المصرى المجهول . كما حدث فى أجزاء شتى على اتساع الوطن العربى . فهم يذكرونه بالخير ، ويشكرونه دائما ، ويحمدون فضله ،

باعتبار أنه لولاه ، ولولا بندقيته التي سارعت في بداية الثورة لحمايته ومساندته ،
لولا هذه البندقية ، فربما كانت اليمن الآن في طريقها إلى العصر الحجري .
ولكن الحمد لله ، الذي أتاح لليمن ظروفًا مواتية ، مكنتها من تحقيق
المعجزة . ولأن ما حققته اليمن معجزة ، فهي تحتاج إلى كتاب ضخم وليس إلى
فصل من كتاب . وهو وعد من ابن عطوطة إذا امتد بنا العمر ، وتوافر الوقت ،
وتحققت أمنية قديمة للعبد لله ، وهي الطواف باليمن السعيدة ، قرية قرية ،
ومدينة مدينة ، في محاولة لاكتشاف جنس العرب . وباعتبار أن اليمن هي
أرض العرب العرب . أما العرب خارجها - تاريخيا - فهم العرب
المستعربون ! .

آلة الزمن

وتركت اليمن، التي ساءت أحوالها عما كانت عليه في عهد سيدنا آدم، إلى عمان. وكان السلطان سعيد بن تيمور لا يزال جاثماً على أنفاس شعبه، وإن كانت كلمة (شعبه) لا تليق بوصف المخلوقات التي كانت يحكمها السلطان. لم يكن هناك شعب، ولا حتى رعايا. وخيل إلى من أول نظرة ألقيتها على البلاد أن هؤلاء الناس مجرد أسرى طال بهم الزمن، وأن عمان ليست وطناً وإنما معسكر اعتقال كبير، وأن الداخل هنا مفقود والخارج مولود، ولا حول ولا قوة إلا بالله!.

وأصابتنى دهشة شديدة لأن الريال العماني يتمتع بقوة شرائية عظيمة. ولكن دهشتي تبخرت عندما اكتشفت أنه ليس في السلطنة كلها من يملك ريالاً إلا السلطان، وأن الريال يحتل في أذهان أهل عمان صورة الأسطورة، بل إنه أصبح لدى البعض منهم شيء أشبه بالغول والعنقاء والخل الوفي! دولة تعيش في النصف الثاني من القرن العشرين، بلا ماء ولا كهرباء ولا شوارع

ولا مقاه، ولا حدائق ولا مواصلات. وللمدينة سور يغلق عليها بعد غروب الشمس، فإن وصل إليها أحد بعد ذلك نام خلف السور حتى الصباح! وسيء الحظ هو من يطلع عليه الصباح ويتمكن من اختراق السور، لأنه سيتترك خرابة إلى خرائب أكثر، وسيفارق خلاء إلى خلاء أوسع، وسيهرب من الذئاب إلى من هو أكثر ضراوة من الذئاب، وهو السلطان!.

وفوجئت بأن كل شيء نادر وقليل في عمان، الماء والطعام والنقود. الشيء الوحيد الذى يوجد بوفرة هو الذقون، ذقون طويلة وكثة وغزيرة الشعر. والرجال جميعاً يتحلون بهذه الذقون ويدهنونها بالمسك والطيب! والشيء الآخر الذى يوجد بشكل أوفر من الذقون هو الأمراض السرية. فهي ترعى بين أفراد الشعب كحريق شب فجأة في غابة أصابها الجفاف منذ زمن طويل!.

ولقد مرت على فترة في صباى المبكر كنت. أشعر فيها بأسف حقيقي؛ لأننى ولدت في القرن العشرين، وكنت أتمنى لو أننى جنّت إلى الحياة في وقت ما من القرون الوسطى. ولكن عندما وقع بصرى على أرض عمان حمدت الله لأن أمنيتى لم تتحقق، ولأننى جنّت في القرن العشرين، وفي بلد يطل عليه من قرب! فلقد شعرت لحظة دخولى مسقط أننى بعثت فجأة في مدينة عربية في عهد العباسيين! وأننى دخلت المدينة بعد ما دمرها التتار بوقت قصير! لم تكن مسقط مدينة بالمعنى المحدد للكلمة، ولكن كانت هناك بضع قرى متقاربة، ولم يكن في هذه القرى شيء يوحى بالحياة إلا الأحياء الذين يدبون على الأرض في إعياء شديد!.

والمرأة عورة لا يمكن أن تقع عين عليها، ولكن العالمون ببواطن الأمور يؤكدون أنها في (الواقع) أكثر حرية من بنات لندن وباريس! والمخدرات ممنوعة بأمر القانون، ولكن بالنظرة السطحية ستكتشف أن الشعب كله مسطول ومنسجم ومخلق في العلالى مع دخان وضباب الحشيش! دخلت سوقاً مسقوفة وخيل إلى أن الباعة والتجار والزبائن جميعاً ممثلون كومبارس في فيلم عن عصر قديم! كان التجار يجلسون الواحد بجانب الآخر على الأرض،

يعرضون بضاعتهم فى قفف، وهى بضائع مختلفة من الذهب الى السمك، الى التبغ، الى الحلاوة المسقطية، الى الموز، وهو موز إفريقيا يكفى أن تضرب بواحدة منه عدوك فيسقط قتيلًا فى الحال! والناس أقرب الى الهنود منهم الى العرب، وإحساسهم بالانتماء العربى يكاد يكون منعدماً. والسبب هو حكم السلطنة الذى توجه بالصلوات نحو الهند وباكستان، وتوجه بالركوع والسجود نحو إيران! ولذلك ستجد أن أكثر الأغاني هندية، وأكثر المصنوعات إيرانية، وأغلب العادات إفريقية، خصوصاً إفريقيا الشرقية السوداء!.

ولطمت على خدى حزناً على المصير الذى انتهت إليه أرض عربية كانت درة فى تاج العروبة، وكانت حجر الأساس فى صرح العروبة وإلى زمن طويل! فإلى هذه البلاد كان ينتمى أعظم حكام إفريقيا الشرقية من دار السلام وزنجبار أو (بر الزنج) كما كان يطلق عليها أيام المجد القديم! وإلى هذه البلاد أيضاً كان ينتمى آخر الملوك العرب فى الكونغو أو ما يعرف الآن بـ زائير، وهو الملك (تشيكيو)، وكانت كانتجا هى عاصمة ملكه، والذى داس الجنود البلجيك عرشه عندما دخلوا الكونغو منذ حوالى مائة عام لا تزيد! وهذه البلاد نفسها هى التى فرضت إتاوة على السفن البريطانية خلال رحلتها من الهند وإليها. وهى التى حطمت أسطول البرتغال فى مياه الخليج، واستولت على كنوزه ومئات الأسرى الذين لا يزال أحفادهم يعيشون حتى الآن فى إمارة رأس الخيمة، ويعرفون هناك باسم (الشحوح)!

ما الذى جرى حتى حدث هذا للبلد الذى كان يوماً ما أقوى دولة بالمنطقة، فأصبح الآن يستعين بالعساكر الأجانب لحماية عرش السلطان من غضبة الشعب المطعون؟! ما الذى جرى لصنف العرب حتى أصابهم كل هذا العطب؟ ولماذا صنف العرب وحدهم هم الذين تأخروا، بينما العالم من حولهم ينطلق فى ثقة إلى الغد السعيد؟! إنها الفجوة التى حدثت بين بعض نظم الحكم فى أجزاء من الوطن العربى والناس الذين أوقعهم سوء الحظ تحت حكم هذه النظم. ففى اليمن كان السبب هو الإمامة. وفى عمان كان السبب هو السلطنة.

وسلطان عمان كان يتمتع بجهل إمام اليمن، ولكنه لا يتمتع بذكائه! كان الإمام ذكياً رغم كل شيء وكان قوياً أيضاً. بينما سلطان عمان كان أغبى من ثور، وأضعف من ذبابة! وكان الخطر الحقيقي يهب عليه من أجزاء أخرى في الوطن العربي.. أجزاء أخرى تحررت وهبت تصارع لتلحق بقطار الزمن الذي يكاد يغادر محطة القرن العشرين! لذلك عمد السلطان إلى إضعاف اللغة العربية حتى لا تقلق الإذاعات العربية أسماع مواطنيه، وشجع لغات أخرى تكفل له الراحة والطمأنينة. وانتهى بعد ذلك إلى إخفاء المدن خلف أسوار متينة البنيان، ثم إلى دفن البلد كله تحت تلال هائلة من الفقر والجوع والخرافة. ثم تتويج هذا كله بجهاز قهر مدرب، ولديه كل الامكانيات، وله كل الصلاحيات لقتل كل من تلوح عليه علامات الرفض أو المعارضة، وحتى عدم الموافقة على ما هو كائن، باعتبار أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان!.

وبالرغم من الخيبة التي هي بالويبة، والوكسة التي هي أعظم من النكسة، فقد رأيت في عمان ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، حضرت سوقاً للرقيق يباع فيه العبيد في المزاد! كانت البضاعة المعروضة عدة رجال، وعدة نساء، وعدداً قليلاً من الأطفال. وكان المشتري يتقدم من الطابور البائس يتحسس البضاعة قبل أن تبدأ عملية المساومة بين البائع والراغب في الشراء! كان الأطفال هم البضاعة المرغوبة، ثم النساء. وكان القطيع البائس أغلبه من إفريقيًا. ولم تكن النساء المعروضات من النوع الذي يصلح للمتعة، بل كن جميعاً من الصنف الذي يصلح للخدمة. ولذلك فقد كان المشتري الذي تقدم ليدفع الثمن، من رجال السلطان. وهؤلاء النسوة سيقمن بالخدمة في حريم السلطان، فقد كانت الخدمة وفقاً على الحريم الأفارقة، أما المتعة فكانت من نصيب الأتراك والهنود وبعض النسوة من سنغافورة وأندونيسيا وسيام! وكان ثمن البني آدم الحي الذي تجري الدماء ساخنة في عروقه ثلاثين ريالاً عمانياً لا أكثر ولا أقل! هذا للرجل أو المرأة. أما الطفل فكان ثمنه يزيد قليلاً، حتى يصل إلى الخمسين ريالاً. وعندما انفض السوق، كان التاجر قد تبقى معه عدد من الأرقاء، بعضهم كبار السن ربطهم جميعاً في حبل، وافترش الأرض معهم

وجلس يعد النقود، ثم نهض يسحب قطيعه خلف ظهره فى رحلته إلى المجهول فى بلاد السلطان!.

وقادنى رفيقى ذات ليلة الى منزل منعزل فى حى الهنود حيث تدور ليالى المتعة للأجانب المقيمين فى مسقط. واستقبلتنا امرأة هندية بدينة تتحلى بمصاغ من ذهب لو تحلى به جمل لما استطاع أن يسير! وأدخلتنا المرأة حجرة عارية من الأثاث فجلسنا على حصيرة مفروشة وعليها بعض الوسائد المتناثرة هنا وهناك، ثم دخلت فتاتان هنديةتان تدوران حول الرابعة عشرة وربما أقل من ذلك بعدة شهور. ونظرت إلينا الفتاتان فى غباء شديد، ثم تعرتا تماماً فى هدوء. وراحت إحداهما تعزف على آلة، بينما راحت الأخرى ترقص وقد بدا عليها التوتر والخوف الشديد! وفى ليلة أخرى سحبنى رفيقى من يدى إلى بيت آخر، فى حى اليمينية حيث دخان الحشيش يعبق فى كل أرجاء البيت، وعدد من المدمنين من أهل البلاد يدخن بشراهة صنفاً هندياً رديئاً لو دخنه حمار لنام مكانه يتثائب لمدة عام! وقال صاحبى الذى كان على علم شديد بأحوال البلاد والعباد فى عمان: لو كان فى السلطنة مستشفيات بعدد هذه البيوت لصارت عمان واحدة من أعظم البلدان.

وكان رفيقى فى السفر تاجراً كبيراً من دولة الإمارات. ودخلت عمان معه باعتبارى سكرتيره الخاص، والجنسية فلسطينى الأصل من عكا، والاسم (أحمد الترماني العكاوى). وكان التاجر العربى على صلة وثيقة وطيبة بحكام البلاد. وبالرغم من ذلك كان شهماً الى الحد الذى جعله يقبل بهذه المغامرة. ولو انكشف أمرى هناك لفقدت رأسى إلى الأبد، ولقد هو الآخر رأس ماله الذى يصل فى عمان إلى سبعة أصفار! كان الرجل زغم غناه يحب عبد الناصر بجنون، وكان يرى فيه فتى العرب القومى، وصوت العروبة المعبر، وذراعها الممدودة فى وجه الأعداء. وكان يعتقد أنه لولا عبد الناصر لابتلعت المنطقة إيران. كنا نجلس وقتها فى بيت المخدرات. ولذلك انطلق الرجل يتكلم دون خوف. فهنا المكان الوحيد الذى لن يستمع اليك فيه أحد؛ لأن الكل هنا مسطول

وضائع، وآخر انسجام! وبينما كانت حلقات الدخان تنغقد فوق رؤوسنا داخل البيت الصغير في ضواحي مسقط، كانت مدافع الثوار تنطلق في رأس الجبل الأخضر. وكانت رائحة البارود تختلط برائحة الحشيش في مسقط! ثم فجأة جاء قابوس. واستبشر الناس خيراً. وكان قابوس عند حسن ظن الناس، واستطاع بمعجزة نقل عمان من القرن الأول الميلادي إلى القرن التاسع عشر.

• • •

ولسوء الحظ لم أشاهد عمان في وضعها الجديد، ولكنني استطعت أن أدرك عمق التغيير الذي حدث هناك. وكانت وسائلنا إلى معرفة هذا التغيير وسائل غير تقليدية. شاهدت فريق عمان في كرة القدم في دورة الخليج عام ١٩٧٦، ثم شاهدته في دورة الخليج عام ١٩٧٨، ثم شاهدته في دورة ١٩٨٠، ثم في دورة ١٩٨٢، ثم في دورة ١٩٨٤، ثم في دورة ١٩٨٦. وأشهد أن التطور الذي حدث في فريق كرة القدم لا يمكن حدوثه في أرض خراب. ليس هذا فقط، ولكنني أرشح فريق عمان إلى بطولة دورة الخليج القادمة، وأرشحه للمنافسة على بطولة آسيا القادمة! معجزة لا شك، خصوصاً إذا علمتم أنه في عهد سعيد بن تيمور كان لعب الكرة جريمة، وكان ارتداء زي الكورة رجس من عمل الشيطان!.

وسيلتي أيضاً لمعرفة ما جرى في عمان، هي فرقة عمان المسرحية، وقد اشتركت في مسابقة مسرح الخليج لعام ١٩٨٧. وبالطبع فازت الكويت بالجائزة الأولى، وفازت الإمارات بالجائزة الثانية، وفازت قطر بالجائزة الثالثة. طيب.. وأين فرقة عمان؟ لقد حققت ما هو أخطر من الجوائز. فازت الممثلة (منى) من فرقة عمان بجائزة أحسن ممثلة. يا سبحان الله. منذ خمسة عشر عاماً كان اسم المرأة عورة، وكان خروج المرأة إلى الشارع يخلب النحس للجميع. وكان (التشخيص) عملية كفر بالله وخروج على ناموسه! لدرجة أن مراسلاً أجنبياً زعم في تحقيق صحفي عن عمان، أنها البلد الوحيد على ظهر الأرض الذي يحتفل بزواج الذكور! ربما كانت مبالغة أو أكنوبة من

جانب المراسل الأجنبي، ولكن المرأة في عمان لم يكن لها مكان إلا في مطبخ البيت، وغير مسموح لها بالقيام بأي رحلة إلا رحلتها النهائية إلى القبور. ولك أن تتصور ما الذي حدث في عمان إذا عرفت أن فتاة من بناتها حصلت على جائزة أحسن ممثلة في مسابقة مسرح الخليج.

الوسيلة الأخيرة التي كانت دليلى إلى التغيير الذي حدث في عمان هي أحاديث الأصدقاء الذين عملوا في حكوماتها وقضوا سنوات هناك. أحدهم هو الصديق الكريم المستشار صلاح نصار. كان وصفه لعمان شديد التركيز، وفصيح التعبير أيضاً. قال وهو يتحدث عن تجربته هناك: بلد يلتقي فيه القديم والجديد، يأخذ أحسن ما في القديم، وأفضل ما في الجديد، وسيصنع من هذا المزيج شيئاً رائعاً وغير مسبوق في يوم من الأيام.

إن ما حدث في عمان هو (حالة)، وهي كأي حالة تحتاج إلى مراقبة ومتابعة وفحص. وهو إجراء يحتاج إلى وقت. ولأننا لا نملك هذا الوقت، فنحن لا نستطيع أن نقدم تقريراً طبياً يشخص الحالة، ويمكن الاعتماد عليه. ولكن كل ما نملك قوله عن حالة عمان: إنها بلد كان مصاباً بواحد من أخطر الأمراض المستعصية، ولكنها تمكنت من الخلاص منه، وإن كانت لا تزال تعاني من آثاره، ولكنها في طريقها إلى الشفاء التام، وقد يستغرق الشفاء وقتاً، ولكن الأكيد أنها ستشفى. معجزة.. أليس كذلك؟!.

الشيخ شخبوط

ولقد خرجنا من أرض الظلمات بأعجوبة . وقطعناها من مسقط إلى واحة البوريمي على حدود الربع الخالي ، صحراء العرب الميتة التي اكتشفها نيابة عنهم عدد من الرواد الأجانب! وكانت البوريمي موضع نزاع لحظة أن وصلنا إليها ، الشيخ شخبوط يقول : إنها من أملاكه ، والملك سعود يطالب بها أيضا ، وسعيد بن تيمور له حصة فيها ويحمد الله على ذلك ! وكان شخبوط حاكما من طراز فريد . كان الحاكم القوي في رأيه هو الحاكم الذي يعاقب الرعية ، وكانت السياسة عنده هي العناد . ولم يلحظ الشيخ شخبوط عمق التغيير الذي طرأ على العالم . وبالرغم من تفجر الأرض تحت قدميه بالنفط ، وبالرغم من امتلاء خزانته بأوراق النقد . ولم يكن هناك أى فرق بين خزانة الدولة وخزانة شخبوط . إلا أن إمارة أبوظبى ظلت على حالها . فالسعيد من أهلها من يجد تمرا . والمحظوظ هو من يصادف عين ماء ، أما من انفتحت لهم طاقة القدر ، فقد تمكنوا من الهروب من قبضة الشيخ شخبوط ! .

وعندما نزلت العين (قسم من أقسام البوريمى) كان الشتاء يزحف نحو النهاية ، ولكن الجو كان دافئا والشمس تلعلع فى العلالى ، وعيون الماء تجرى تحت الأقدام . وثمة مزروعات ولكن قليلة . والناس تهمهم ولا تتكلم . ومقهى واحد ورواد قلائل ، ولكن يبدو من المنظر العام أنهم فى المقهى وفى أماكنهم منذ مائة عام !! ولكنى بعد يوم واحد فى العين اكتشفت أن هؤلاء البشر الذين تصورت أنهم يغطون فى النوم ، قوم أذكىاء وأنهم عرب ، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة . فما العمل ، والشيخ شخبوط يركب آلة الزمن ويطلقها بأقصى سرعة إلى الوراء ؟ .

ولقد ألهمتني هذه الزيارة السريعة سلسلة إذاعية تحت عنوان (الشيخ لعبوط يتلعبط) : قصة رجل ضايع ذهب إلى لندن للعلاج ، فألقت القبض عليه مخابرات بريطانيا ، ونقلته إلى دار الضيافة ، وحددت له موعدا مع الملكة . ولما حاول الرجل الاستفسار عن سر هذه (العملية) الغريبة ، جاءه الجواب بأن مخابرات بريطانيا لانفوتها واردة ولاشاردة ، وأنه مهما حاول التخفى والتنكر فكل شيء يمكن اكتشافه ، خصوصا لدى مخابرات بريطانيا . وأفهموه أنهم عرفوا حقيقته منذ أول لحظة صافحت فيها قدماه أرض لندن ، فهو الشيخ لعبوط ولا أحد سواه ! وحاول الرجل التخلص من هذه الورطة دون جدوى ، فقد وقعوا معه معاهدة ، وتولى تأليف حكومة ، وقدم طلبا للجامعة العربية ، وأصدر بيانا مشتركا مع الشيخ فلحوظ يدعو فيه إلى السلام العالمى والسلام الملكى والسلام الوطنى .. والسلام عليكم ورحمة الله !! ولقد ذاعت هذه المسلسلة وشاعت فى كل أرجاء الخليج . واعتبر كل شيخ أنه المقصود بهذه السخرية المرة . والواقع أننى لم أقصد أحدا معينا على الإطلاق ! والمنظر الذى رأيته فى العين خلال تلك الزيارة القصيرة ، التى مرت فى حياتى كالحلم ، كان حلما فظيحا كالكابوس ! .

ويبدو أن السماء قد استمعت إلى دعائى ، فقد أطاح الشيخ زايد بالشيخ شخبوط وتولى السلطة مكانه ، وقالت الناس : شيخ آخر جديد ! وما الذى يمكن

أن يفعله زايد فى هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، وبين هذا العدد القليل من الناس ؟! ولكن - والحق أقول - زايد كان شيئاً آخر مختلفاً . ولقد اكتشفت السلطة الجديدة شيئاً لا يمكن أن يصدقه عقل . ففى خزانة الشيخ شخبوط عثر الشيخ زايد على أوراق نقد ، كل ورقة تحمل رقم مليون دينار . وقد تم طبع هذه الأوراق فى بنك إنجلترا ، وبطلب خاص من الشيخ شخبوط . وكانت هذه الأوراق هى ثمن بواكير النفط الذى بدأ يتدفق من أرض الإمارة ! ولم يكن شخبوط يعلم أن للنقود وظيفة سوى دفنها فى الخزائن ! وقيل إنه كان يفتح الخزينة المتخمة بملايين الدينارات ويهتف صائحا : « غرى غرى » !! فقد كان يعتقد أيضا أن آبار البترول هى ملك خاص به ، وأنها هدية السماء له هو شخصيا ! أما شعب الإمارة ، أما شعب الإمارات ، أما شعب العرب ، فلكل فرد منهم رب يحميه ! .

ولقد قدر لى أن أعود مرة أخرى إلى الخليج ، ولم تكن قوات بريطانيا قد تخلت عن قواعدها بعد . ولما كان حصول العربى العادى على تأشيرة دخول إلى الخليج شيئاً دونه ضرب الرقاب ، فما بالك بتأشيرة دخول للعبد لله ؟! ومن سجننى هناك دخل الجنة وعلى رأسه قنديل ، ومن قتلنى دخل الجنة وعلى رأسه قنديلان والله أعلم ؟! ولكنى استطعت ، بالرغم من كل شيء ، دخول الخليج ووضعت اسمى فى طلب تأشيرة دخول جماعية لفريق كرة قدم مصرى كان فى طريقه إلى لعب بعض المباريات مع أبناء الخليج . وضم الكشف أسماء أمهر لاعبيه كرة القدم فى مصر : شحنة وأبو جريشة ورفعت الفناجيلى ومصطفى رياض والعربى ومحمود السعدنى .. وآخرين ! وهكذا عدت إلى إمارة أبوظبى صحفيا فى ملابس كرة القدم ! .

وفى الليل جاءنى المستشار الصحفى السابق للشيخ زايد ، رجاء مكاوى ، وقال : الشيخ زايد فى انتظارك . وتصورته لقاء عاصفا بين الشيخ الجديد والصحفى الذى هاجم أخاه . ولكنى اكتشفت ، بعد أول دقيقة من اللقاء أن كل ماتصورته كان وهما ، فها هو الشيخ زايد جالس على الأرض يحدق فى وجهى

طويلا ، ثم يقول : أنت هاجمت الشيخ شخبوط ، ولكن أنا خلعتة ! وراح الشيخ زايد يتحدث عن أحلامه ، أو أوهامه - كما تصورت ! ها نحن الآن - والحديث لزايد - نضع أقدامنا على أول الطريق ، وسنبني أبوظبى ، ليس من أجل أبوظبى ذاتها ، ولكن من أجل قيام دولة واحدة كبرى من جميع إمارات الخليج ، دولة تضم حتى البحرين وقطر وإمارات ساحل عمان المتصالحة . وجهودنا لن تتوقف عند هذا الحد ، بل ستكون هذه الدولة مجرد نواة لدولة الوحدة التى نحلم بها جميعا ، والتى تمتد من طنجة إلى صنعاء ، ومن كركوك إلى جوبا . وراح يتحدث عن أبوظبى التى يحلم بها ، أبوظبى المدارس والمساكن والشوارع والساحات والمستشفيات والجامعات والموانئ والمطارات . وشد الشيخ زايد على يدي ، وقال وهو يودعنى : أرجوك أن تعود إلينا بعد بضع سنوات ثم احكم لنا أو علينا . إننا سنعمل على مهل وفى تودة ، لأن المثل العربى يقول : « الحصان القوى يتأخر فى بداية السباق » . والمثل العربى يقول أيضا : « المليح يبطىء » ١ .

ولقد جرى هذا اللقاء مع الشيخ زايد ذات مساء فى أواخر ١٩٦٧ . ولم يكن فى أبوظبى كلها فندق ، ولم يكن فيها معالم ، حتى مباراة كرة القدم التى جرت بين الفريق المصرى والفريق الطيبانى جرت على أرض خراب ! وقلت فى نفسى : كيف سيتمكن الشيخ زايد من تحقيق أحلامه مهما أوتى من حسن النية وعلو الهمة ؟ صحيح النوايا طيبة ، ولكن الواقع مر ! وصحيح الحصان الجيد يتأخر فى أول السباق ، ولكن أين هو السباق ؟!

وكان الرجل الثانى الذى التقيته فى أبوظبى شابا عربيا حتى النخاع ، نكرنى بهؤلاء الرجال الأوائل الذين قامت على أكتافهم دولة العرب فى الزمان الخالى . كان محدثى هو أحمد خليفة السويدي ، وكان يشغل منصب رئيس الديوان الأميرى . ولم يكن هناك ديوان بالمعنى المعروف ، ولكن بعض الموظفين وبعض الأوراق . وكان السويدي يحلم هو الآخر بدولة تمتد من البحرين إلى رأس الخيمة . وقال فى هدوء شديد وبلا أى انفعال : نستطيع أن

نقيم مثل هذه الدولة في عهد زايد ، فهو من هذا الطراز من الرجال الذين ينظرون إلى بعيد ، وهو حاكم بالموهبة ووحيدوى بالفطرة . وهو عربى من أصلاب عربية يحلم دائما بدولة العرب الكبرى حيث الراية الواحدة والجيش الواحد الذى يزحف فى كل اتجاه لتكون كلمة الله هى العليا . وكان هذا هو الجانب المشرق فى إمارة أبوظبي .

وعلى الناحية الأخرى ، كانت هناك جماعات أخرى مشغولة باغتراف كنوز الذهب التى لا تنضب ، ولسان حالها يردد : « هذا من نبط ربى » ! كانت بواكير الثراء قد ظهرت على البعض ، وجنون النفط يسرى فى الإمارة الصغيرة كالنار فى الهشيم . وكان على الشيخ زايد أن يقاتل فى كل الجبهات : الانجليز المستعمرين ، والوافدين الطامعين ، ونماذج من أهل البلاد تريد الاستئثار بالثروة والسلطة معا . ولكن شابا عربيا من فلسطين قال لى وهو يفرك يديه سرورا : سينتصر زايد فى النهاية . وكان الشاب الفلسطينى العربى يخطو خطواته الأولى على أرض أبوظبي ، وقد افتتح لنفسه مقهى على الشاطئ ، ونثر بعض المقاعد على الرمال ، وبدأ يستقبل بعض الرواد فى أمسيات الصيف الخانق . قال لى (أبو طافش) : الشيخ زايد عربى أصيل ، ولذلك ستتحقق أحلامه . لقد جاء إلى هنا وجلس على هذا المقعد (وأشار إلى مقعد غير بعيد) ولما عرف أننى عربى من فلسطين ، شجعتنى بكلمات حلوة وبمبلغ من المال ، وقال لأفراد حاشيته : « عاونوه جميعكم وذلّلوا له العقبات ، إننى أريد للإمارة وجها عربيا حقيقيا ، وأى عربى هنا هذه بلاده . إن الخطة الجهنمية لأعدائنا هى تعريب الحكم وتدويل الشعب . ولكننا عازمون على تعريب الحكم والشعب معا » .

وقضيت أسبوعا فى إمارة أبوظبي انتقل بين كثبان الرمال والجرافات الضخمة تعمل بلا هوادة لتمهيد الأرض ، وأنوار المراكب التى ترسو بالقرب من الشاطئ - ولا أقول من الميناء ، فلم يكن ثمة ميناء بعد - تقيم مدينة كبرى داخل الخليج . وبعض العمال من بلاد بعيدة غريبة ينحنون على الأرض فى

عمل دائم ، وأموال كالماء تنساب على الرمل . ولما أبديت ملاحظة حول ضخامة الأموال التي تنفق ، همس مرافقى فى أذنى : هذا على أى حال خير من كنزها فى خزائن من الصلب .

لقد قدر للعبد الله أن يرى الحياة وهى تنشأ على أرض الإمارة . ولقد واصلت النشوء رغم العقبات والمعوقات والمؤامرات فى الداخل والخارج . وبالرغم من جندى الحدود الذى استوقفنى على بعد أربعين كيلو مترا من قصر الشيخ زايد ليفتح حقائبى ويتفحص جواز سفرى ويلقى على وجهى نظرة مريبة ، فقد كنت فى طريقى إلى إمارة دبى ، وهتفت من شدة الغيظ : « يارب الجنود ، متى تهلك هذه الحدود ؟ » .



ويبدو أن الله قد استجاب لدعائى ، فبعد سنوات قليلة انهارت الحدود والسدود بين الإمارات السبع ، وكان ذلك فى مصلحة التجارة وحركة المال ، وصارت الطرق سالكة بين أبوظبى ودبى ، وعجمان وأم القوين ، والفجيرة ورأس الخيمة ، وبينها جميعا والشارقة . وصار زايد أميرا للدولة الجديدة ، ورأشد بن مكتوم نائبا للرئيس ، وجميع الحكام أعضاء فى المجلس الأعلى الذى يحكم الدولة . وتسابق المهاجرون إلى الدولة الجديدة التى تحولت فى سنوات تعد على أصابع اليد إلى واحدة من أهم الدول العربية . وصار الشيخ زايد حاكما محبوبا لدى الجماهير العربية ، فهو لم يشترك فى أى مشاكل عربية ، وهو دائما حاضر معهم بالمدد فى حروبهم ، وبشخصه فى مشاكلهم . وانشقت الأرض فى دولة الإمارات عن ثلاث مدن جميلة : أبوظبى ودبى والشارقة . وامتدت الحدائق واتسعت ، وصارت أبوظبى - للعجب - أكثر اخضرارا من تونس الخضراء . وعندما زرتها آخر مرة فى عام ١٩٨٥ وقفت مبهورا لأصديق ما أرى ، لقد صارت الأرض المهجورة أجمل مدينة على إتساع الوطنى العربى !! .

ولكن مأساتنا نحن العرب أننا نبدأ المشاوير ، ثم ينتابنا الملل فنتوقف ، مشروع الوحدة فى دولة الإمارات ، صار وحدة فى (الشكل) أكثر منها وحدة

فى (المضمون) ، وتضخمت المشاكل بسبب أطماع الحكام وضيق أفق بعض المسئولين وشراة بعض المستفيدين ، فتوقف الاتحاد عند فتح الحدود وتوحيد مناهج التعليم ، وفيما عدا ذلك ، فكل إمارة لها جيشها الخاص وإعلامها المستقل !.

وفى أبوظبى مثلا تليفزيون ومحطة إذاعة ، وفى دى تليفزيون ومحطة إذاعة ، والشارقة تستعد لافتتاح محطة تليفزيون ، مع أن المسافة بينها وبين دى ، كالمسافة بين مهبط الطائرات فى أى مطار وموظف الجمارك ! وأشهد أن الصحافة فى الإمارات متقدمة ، وتعتبر من أنشط الصحف العربية ، ولكن فى أبوظبى أربع جرائد يومية وسبع مجلات أسبوعية ، وفى دى جريدة يومية ، وفى الشارقة جريدة يومية ، مع أن عدد القراء فى الإمارات لايزيد على خمسين ألف قارئ فى عموم دولة الاتحاد ! ولهذا السبب أهدرت أموال كثيرة ، وتبددت جهود ضخمة .

وحتى الأسعار اختلفت من إمارة إلى أخرى ، وفى بعض الأحيان وصل إيجار الشقة فى أبوظبى مائة ألف درهم فى العام ، ووصل إيجارها فى دى ستين ألف درهم ، وفى الشارقة وصل إيجار الشقة ثلاثين ألف درهم ، وتستطيع أن تستأجر نفس الشقة فى عجمان بعشرة آلاف درهم ... لاتزيد ! ولكن يبقى الشيخ زايد وسط هذا الهمة كله متمسكا بالاتحاد ، حريصا عليه ، إلى درجة أن أغلب ميزانية الاتحاد من جيبه الخاص . وبالرغم من المتاعب والمشاكل فى دولة الاتحاد ، إلا أنه سعيد الحظ من العرب من يقيم فى دولة الاتحاد ، وأسعد منه من يزورها فى الشتاء ! .

وإذا كان عمن ابن خلدون قد التفت إلى ملاحظة هامة للغاية فى مقدمته الشهيرة ، عندما قال : « وآفة العرب حب الرئاسة » ، فإن هذه الملاحظة الذكية ستجد لها تطبيقا عمليا على أرض دولة اتحاد الامارات . وثبت أننا نحن العرب لانستطيع أن نتوحد حتى فى رقعة من الصحراء ليس فيها إلا سبع مدن جميلة وشعب طيب :-.

الأرض يتتكم - (هندى) !

هناك نكتة مشهورة، وهى أن حكومة أجنبية أرسلت أحد رجالها فى بعثة لدراسة اللغة العربية، قبل تعيينه ممثلاً لها فى إمارة دبى. وبعدما استكمل تعليمه، وأتقن اللغة العربية، سافر إلى دبى، وبعد أسبوع من إقامته هناك، أرسل برقية هذا نصها: لقد حدث خطأ ما، لا أحد هنا يتكلم العربية إلا الحاكم! وهذه النكتة صحيحة رغم كل شيء. فعندما دخلت دبى من الناحية الغربية، تصورت أننى فى أصفهان. وعندما دخلت قسمها الشرقى تصورت أننى فى مدينة من مدن الهند. وعليك لكى تتفاهم فى دبى أن تتقن الهندية أو الفارسية. أما العربية فستحتاج إليها إذا كنت ستقابل الأمير.

ولقد فوجئت حقاً لحظة دخولى دبى. فهذه مدينة حقيقية، فيها مظاهر عمران، وتقدم كل الخدمات. وهى شديدة الشبه ببيروت فى الخمسينيات. وفيها إدارة ذكية وحازمة ونشطة. وليس فى الإمارة نفط، ولكنها استغنت عن النفط بنظام تجارى مفتوح يسمح بالتهريب والتهليب، ولكن وفقاً لخطة موضوعة.

وتستطيع أن تشتري في دبي كل شيء، الذهب والسلاح والحشيش وجواز السفر. فلا شيء هنا ممنوع مادمت تدفع الثمن، وما دام التاجر يدفع النسبة المطلوبة. الشيء الممنوع هنا، هو أن تكون نصاباً أو شحاتاً، أو جيوبك خالية من النقود. وميناء دبي الذى يبعد بضع ساعات عن ميناء بندر عباس، مفتوح كأبواب جهنم لاستقبال ألوف الوافدين من كل مكان، من إيران والهند وإفريقيا وباكستان.

وستجد في دبي قرى هندية بأكملها، وستجد أحياء إيرانية بأكملها، وأسواقاً كاملة ليس فيها سوى صنف البلوش! ولكن أخطر من ذلك أن أغلب الذين يرتدون الدشداشة والعقال ويتاجرون بالملايين ويتكلمون العربية بفصاحة، هم في الأصل ليسوا عرباً، وليس فيهم من العروبة إلا الزى واللسان، وهؤلاء يحاربون أى محاولة للوحدة، ويقفون في وجه أى خطوة نحو التقارب الحقيقى بين الإمارات. إن التمزق هو ضمان بقائهم الوحيد، وأى وحدة حقيقية فيها تهديد مباشر لمصالحهم، وهى بداية النهاية بالنسبة إلى وضعهم المميز والفريد.

ذات يوم ذهب صحفى عربى يعمل فى جريدة تصدر فى إمارة قريبة، والتقى بمسئول كبير فى دبي، وعندما وجه إليه سؤالاً محرجاً، نظر المسئول إلى الحراس، فقاموا بجر الصحفى من رجله إلى الشارع، وتركوه فى وحل الطريق بلا سؤال ولا كلام!.

وذات مرة هبط الإمارة شاعر أرزقى مغمور من لبنان، وطلب مقابلة مسئول كبير. وعندما جلس الضيف أمام المسئول، فتح حقيبته الأنيقة، وأخرج منها قصيدة عصماء فى مدح صفات المسئول وكرمه وعظيم أخلاقه، فما كان من المسئول إلا أن انتزع القصيدة من يدى الشاعر ومزقها، وقال له: ظننت أن معك مشروعاً تجارياً تريد أن تبحث تفاصيله معى، أما الأمر كذلك، فأنت محبوس حتى تغادر هذه البلاد! فالقاعدة فى دبي.. التجارة أولاً ثم الصحافة والشعر والفن والكلام الفارغ!.

كانت تلك هي الحال فى دى عام ١٩٦٧ حين صافحت قدامى أرضها أول مرة، ولكن.. لأن قوانين الطبيعة لا تخطيء، ولأن كل فعل له رد فعل مساو له فى القوة ومضاد له فى الاتجاه، فقد التقيت بحركة ثورية فى دى.. تصوروا حركة ثورية؟! وهى حركة ثورية حقيقية عمادها بعض الشباب العرب، وهى تشارك مشاركة فعلية فى الأحداث، ولها صوت مسموع رغم أنها تعمل فى الخفاء، وتركز همها على قيام دولة الاتحاد.

وقال لى أحد زعماء الحركة العربية الثورية فى دى: إننا نعمل هنا على أرض صلبة، فكل العرب فى هذه الإمارة معنا، صحيح أنهم أقلية، ولكنهم الرأى العام! أما الأغلبية الأجنبية فهى ليست معنا، كما أنها ليست ضدنا، لأنها تعمل فى واد آخر معزول. أما الأعداء الحقيقيون، فهم الأجانب الذين استعربوا، وهؤلاء ليسوا ضدنا نحن فقط، ولكنهم ضد العرب بوجه عام وضد أى اتحاد بين الإمارات، كما أنهم ضد أى اتصال بالوطن العربى! وقال لى الشاب العربى الثائر ونحن نجلس ذات مساء على شاطئ الخليج: تصور، لقد فتشوا أمتعتك وأنت فى طريقك إلينا من إمارة أبوظبى، وسيفتشونك مرة أخرى وأنت فى طريقك من هنا إلى إمارة الشارقة، رغم أن بيننا وبين الشارقة خمسة عشر كيلو متراً لا تزيد. وسيفتشونك بعد ذلك بين كل إمارة وأخرى رغم أن عجمان تبعد عن الشارقة ثلاثة كيلو مترات! هل يتصور أحد أن وضعاً مثل هذا يمكن أن يستمر؟ ولذلك فنحن واثقون من النجاح رغم الصعوبات والأخطار..

• • •

ولقد خرجت من دولة دى، أو إمارة دى إلى دولة الشارقة على مرمى حجر.. تصوروا؟! وعلى الحدود راية مختلفة، وعساكر شرطة، ورجال جمارك، مع أن الجميع يتكلمون العربية ويدينون بالواحد القهار، ويؤمنون بالعروبة، ويهتفون للوحدة اللى ما يغلبها غلاب! والحق أقول إن معاملة عساكر الشارقة كانت ودية، والناس فى الشارقة أكثر طيبة، لأنهم أقل اشتغالا

وانشغالا بالمكاسب والتلهيب والتجارة.

كانت الشارقة لحظة دخلتها قرية متواضعة، وأحوال سكانها أكثر تواضعاً من القرية، وأميرها الشيخ خالد أكثر تواضعاً من القرية ومن الناس. ورغم كل شيء كانت الشارقة نقطة مضيئة في بحر السواد الشامل، فأغلب أهلها تلقوا قدراً متفاوتاً من التعليم. والبنت الشارقة لا تختفى في عباءة، وهي تذهب إلى المدرسة وتعمل أحياناً، وهي تقرأ وتكتب في جميع الأحوال. ولم يكن في الشارقة أحد من صنف الهنود أو الفرس، وكان بعض أبنائها يحاولون العمل في الصحافة، ولكن في الكويت، وكان أشهر هؤلاء تريام عمران وشقيقه.

ولكن الذي أسعدني في الشارقة هو وجود زراعة هناك، وهم يزرعون بعض الخضروات لتكفيهم ذل انتظار ما تأتي به السيارات من خارج الحدود، وهذه السيارات قد تأتي أحياناً ولكنها غالباً لا تأتي.

ولقد عشت في الشارقة ثلاثة أيام ونزلت في قصر كان يطل على البحر، ونمت في الحجرة ذاتها، التي نام فيها جلالة الملك حسين. ودخلت القاعدة البريطانية التي كانت مصدر الرزق لأغلب السكان، ثم قررت بعدها ألا أتقدم خطوة أخرى على ساحل عمان، وأن أكتفى بهذا القدر، وأن أعود أدراجي.. وكفى الله المؤمنين شر التجوال! وتعجبت وقتئذ كيف تدهورت الأحوال في هذه الإمارات إلى هذا الحد الرهيب؟! وكيف تحول أشهر بحارة العرب، وأشهر صيادي اللؤلؤ إلى مجرد مخلوقات تعيش على ما يجود به المستعمر من مساعدات؟! وخرجت بنتيجة غريبة، إنه الحظ السيئ والظروف التعيسة، وبعض المشايخ الذين عقدوا المعاهدات مع حكومة بريطانيا، ونصوا فيها على أنها سارية المفعول (حتى يشيب الغراب)! أما الحظ السيئ، فهو وقوع الإمارات في طريق الهند، وكانت بريطانيا الإمبراطورية مستعدة للتفريط في كل شيء إلا طريق الهند.

أما الظروف التعيسة، فهي خلو البلاد من أي مصدر للرزق. فلم يكن النفط قد تفجر من الأرض بعد، والزراعة نادرة كأنها مشاتل للتجارب، أكثر

منها مزارع للاستغلال، وأكثر السكان رحلوا إلى السعودية، وإلى الكويت، وإلى قطر، وبعضهم ذهب بعيداً إلى عمان وإلى الهند.

وأما بعض المشايخ، فقد كانوا مجرد موظفين في معسكرات الانجليز، وكانت مهمتهم تنحصر في تأديب المخالفين والتفاهم مع السكان وإبلاغهم تعليمات الانجليز والفصل في المنازعات بين القبائل، وحضور قعدات الشاي والبخور في الليل، وتربية الصقور لزوم الفشخرة والقنص.

وبلغ تدهور الأحوال حداً جعل نشرة الأخبار في إذاعة المعسكر الإنجليزي تنصدها خبر وصول سيارة الشحن رقم كذا من إمارة أبوظبي مثلاً إلى إمارة دبي، ويعلن المذيع في صوت وقور أن شاحنة وصلت بأمان الله وعليها شحنتها كاملة! ذلك لأن الطرق لم تكن طرقاً بالمعنى المعروف، ولكنها كانت مدقات في رمال الصحراء. وإذا نجت السيارة من الرمال خطفها قطاع الطرق، فإن نجت من قطاع الطرق فلن تنج من قطاع الذئاب الجائعة أو السيول المدمرة. ولذلك فوصول الشاحنة يعتبر خبراً يستحق أن يتصدر نشرة الأخبار. ولم تكن هذه إذاعات بالمعنى المعروف الآن، ولكن كانت توجد في كل معسكر انجليزي محطة إذاعة خاصة به، وكان يذيع نشرات الأخبار باللغة الانجليزية وموسيقى راقصة وبعض الأوامر والتعليمات، ثم كان يخصص ساعة واحدة كل مساء لإذاعة برنامج باللغة العربية لسكان الإمارة.

أين ذلك كله مما يحدث الآن هناك؟ وفي دولة الإمارات الآن ست محطات إذاعة كل منها قادرة على تغطية المنطقة العربية كلها، وست محطات تلفزيون ملونة، وثلاث محطات للأقمار الصناعية. لدرجة أن إمارة رأس الخيمة تستطيع الاتصال مباشرة هاتفياً بأي ركن على سطح الأرض، مع أن عدد أجهزة الهاتف فيها لا يزيد على ألف جهاز، كما أن عدد سكانها لا يزيدون على خمسة عشر ألف نسمة، وكان في استطاعتهم أن يتنادوا عبر النواقيذ! ولكن سبحان مغير الأحوال، من الضنك الشديد إلى الإسراف الشديد، ومن الفرجة على خيال الظل مرة كل عيد إلى مشاهدة المباريات الهامة

والاستعراضات العالمية حية وعلى الهواء.

ولكن أغرب شيء وأخطر شيء هو وجود خلية من الشباب اجتمعت بهم في الشارقة ذات مساء، شباب في عمر الورد يعملون في السر وفي صمت، ويؤمنون بالقومية وبعبد الناصر وبالوحدة من الخليج إلى المحيط. ولست أذكر الأسماء الآن، فقد أصبح بعضهم وزراء ومستولين في الدولة الجديدة، وقد غير بعضهم مواقعهم وتلاءم مع الوضع الجديد.. أو تلاءم عليه، وبعضهم صار مليونيراً يربح عشرات الألوف من مكالمات تليفونية، وينفق عشرات الألوف في سهرة واحدة.. حمراء أم زرقاء ! .

ولقد كانت الوحدة بين الإمارات حلماً فصارت حقيقة، وإن كانت حقيقة مشوهة، إلا أنها حقيقة واقعة على كل حال. واستطاعت رغم كل شيء أن تقدم بعض الإنجازات. فلم تعد الإذاعة تذيع نبأ وصول الشاحنة رقم كذا، لأن طابور الشاحنات لا ينقطع ليل نهار على الطرق الحديثة التي تربط الإمارات. وأزيز الطائرات لا ينقطع لحظة في جو الإمارات، وصوت الإذاعات لا يتوقف، وصور التليفزيونات لا تختفى.

لقد هبت الحياة فجأة واقفة على قدم وساق في ساحل عمان الميت، وبدأت الوحدة زحفها، ولن يستطيع أحد وقفها، لأنه لم يخلق بعد هذا الذي يستطيع أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء.

وقبل أن أغادر الإمارات، صرخت من أعماقي: «يا كاشف الغمة.. ساعد أصحاب الهمة...».

فُجَاءَةُ الْإِنْسَانِ .. فُجَاءَةُ !

وإذا كنت قد اكتشفت جديداً في ساحل عمان .. فقد فشلت في اكتشاف
أى شيء جديد أو قديم في قطر . كانت قطر هي آخر قرية كبيرة . وبدلاً من
المعسكر كانت هناك شركة النفط . ثم عشرات من التجار الأقوياء . وإن
كان أغلبهم من أصول غير عربية .

وإذا كان أهل الإمارات يمتازون بالدماثة والسماحة والدهاء الشديد ،
فالقطري جاف الطبع وحاد المزاج . وهو فخور بتاريخه القديم بمناسبة ومن
غير مناسبة . كان القطري يفخر بأنه من نسل قطري بن الفجاءة . وتساءل عن
أمجاد القطري . ويكون الجواب أنه من قطر . وأنه كان في رحلة إلى بلاد
اليمن . ثم جاء فجأة إلى قطر ، فسمى فجاءة ! .

والمثقف القطري يفخر أيضاً بأن حركة القرامطة ظهرت بوادرها الأولى في
قطر . وإن كان هناك قول آخر للتاريخ بأن الحركة ظهرت في البحرين ، إلا

أن القطري المثقف يسوق لك ألف دليل على أنها هبت من قطر ، وأن ابن قرمط كان قطريا يحمل الجنسية القطرية . وربما استبدت الحماسة بالمثقف القطري ، فأكد لك أنه كان يعمل في شركة النفط في قطر .

وقد شهدت قطر في الخمسينيات والستينيات دعوات تنادى بعدم تدريس تاريخ مصر والعراق وسوريا وغيرها لطلبة قطر ، والاكتفاء بتدريس تاريخ قطر . وعدم تدريس جغرافية الوطن العربي ، والاكتفاء بتدريس جغرافية الخليج . ولكن حظ قطر الحسن أنها نجحت في التغلب على هذه الدعوات . وربما يمكن القول الآن - وفي منتهى الأمانة - بأن نظام التعليم في قطر يعتبر من أرقى نظم التعليم في الوطن العربي . وكان ذلك بفضل وزير التعليم السابق ، وأيضا بفضل عربي من مصر اسمه (كمال ناجي) .

وسيبقى لقطر فضل على منطقة الخليج - بعد الكويت بالطبع - أنها كانت كعبة كل المهاجرين من إمارات ساحل عمان ، ففيها شركة للنفط ، وفيها حركة تجارية نشيطة . وأسباب العيش متوافرة إلى حد كبير . كما أنها كانت مقصدا لطلاب العلم . فأحمد خليفة السويدي مثلا ، أقام وتعلم وعمل في قطر فترة طويلة من الزمان ، قبل أن يعود إلى مسقط رأسه في أبوظبي . وعلي الشرفا أيضا ، وعشرات من المسؤولين في دولة الإمارات . حدثني رئيس تحرير مجلة أسبوعية في أبوظبي ، أنه عاش فترة من صباه وشبابه في قطر ، وأنه كان يعمل (بوى) في شركة النفط . و (بوى) تعنى فراش بالعربي الفصيح . وقال لي مدير بنك في دولة الإمارات : إنه عندما اشتد الجذب والجفاف في ساحل عمان ، هاجرت الأسرة في زورق شراعى من الخليج إلى قطر . ولكن الرياح كانت عاصفة ، والبحر كان أكثر هياجا . فانقلب الزورق وأشرفت العائلة على الهلاك . ولكنهم تمكنوا من النجاة بمعجزة بعدما فقدوا واحدة من بنات الأسرة . وفي النهاية استطاعوا الوصول إلى قطر حيث عمل رب الأسرة في البنك ، وعمل أبنائه في مهن شتى . واستطاعوا مواصلة الحياة حتى عادوا مرة أخرى إلى الإمارات . ولكن الحال كانت قد تغيرت والدنيا كانت قد تبدلت (رفع

سماعة التليفون خلال الحديث ليبلغ عميلا له في لندن بموافقته على صفقة بعشرين مليون درهم) .

وفي خلال زيارتي الأولى لقطر ، اجتمعت مع الأمير السابق لمدة نصف ساعة ، لم نتبادل فيها كلمة واحدة . ولكنى تناولت خلالها الشاي مرتين والقهوة مرة واحدة ؛ وشميت البخور في نهاية (الحديث) . كان منطويا على نفسه ، ومرتابا في كل الناس ، وكان يقضى في قطر شهرين طوال العام ، وفي القنص شهرين ، وفي الاستجمام من عناء القنص شهرين ، وباقي شهور السنة يقضيها في قصره على شاطئ الخليج في دبي ..

وقد حضرت مباراة كرة قدم حدد موعدها في الرابعة بعد الظهر . ولكنها لم تبدأ إلا في السادسة ، بسبب عدم وصول الأمير الذي أقيمت المباراة تحت رعايته . وعندما وصل الأمير وعزفت الموسيقى السلام الأميرى ، لم أتمالك نفسى من الضحك ! فقد كان الأمير طفلا في الخامسة من عمره . وقف يصفق ويصرخ أثناء عزف النشيد . وبالطبع دارت المباراة في الظلام ، وانتهت بانتصار فريق قطر . مع أنه كان يلعب في قطر مع بطل أندية إفريقيا . ولكن في ذلك الزمان ، لم يكن أحد يستطيع أن يلعب في قطر ويفوز . ولو كان الفريق الزائر مكونا من أحد عشر (بيليه) . وعندما عاتبت الحكم الذى أدار المباراة لسوء حكمه ولجهله بقواعد اللعبة ، رمقنى بنظرة ذات مغزى ، وقال لى فى حكمة غريبة : « لسنا هنا فى كأس العالم . المهم أن تنتهى المباراة فى سلام ، وأن نجلب السعادة إلى قلوب الحاضرين » .

ولكن موقفا عظيما يذكر لقطر ، وهو ندرة العنصر الأجنبى على أراضيها ، ووفرة العنصر العربى . وهى ليست مسألة عشوائية ، ولكنها جاءت نتيجة تخطيط سليم ، وربما نظرة قومية من أعلى . وبالرغم من أنها لاتزيد فى المساحة والسكان عن بنها فى مصر ، أو حمص فى الشام ، أو الحلة فى العراق ، إلا أنك ستجد فيها محطة إذاعة ولا محطة (صوت أمريكا)

وتليفزيون ملون . ومدينة رياضية . وحفنة صحف ومجلات . ومصنعا للحديد والصلب .

• • •

سألت جاري في الطائرة - وهو انجليزى من لندن - عن المسافة بين قطر والبحرين . فأجابنى بأن المسافة بينهما هى نصف قرن بالتمام والكمال ! والذى قاله الرجل الانجليزى الخبير هو الواقع . ففى البحرين حضارة وتاريخ ومجتمع ، وفيها حكومة قوية عفية كحكومة قطر . ولكن فيها أيضا حركة ثورية ، أحيانا فوق الأرض ، ودائما تحت الأرض . وصوت الناس له زئير فى البحرين . أحيانا يشتد كزئير أسد جائع فى غابات كاتنجا ، وأحيانا يلين كزئير أسد أفلام مترو . ولكنك ستستمع الى الزئير فى كل مرة تطأ فيها قدماك أرض البحرين . وناس البحرين أذكاء ، وهم أشطر تجار الوطن العربى ، وأعلم أهل الخليج . ومنهم الفنانون والممثلون والراقصات .

وأشهر 'مطرب' فى الخليج بحرینی اسمه محمد زويد . استمعت إليه فى جلسة خاصة ، وأشفقت عليه . فقد كان يغنى بقطرات الدم المتبقية فى عروقه ، وبخفقات قلبه الذى أصابه الوهن بفعل السنين الطويلة . فقد كان الرجل يزحف نحو الثمانين ، وقد شرب ليلتها حتى ثمل ، وجلس على الأرض وراح يدندن على العود ، ويحاول أن يستخرج صوتا من داخل تلافيف تجاويف صدره ، يهتز وهو يغنى كعصفور أصابه البلل ، ويرتعش كقطعة تلد فى زمهرير الشتاء . ولكن صوت محمد زويد ، بالرغم من كل شيء كان قويا ودافئا وصادقا . وقد سرحت مع صوته إلى سحيق الماضى ، وطويت القرون القهقرى إلى صدر الإسلام . إلى شعاب مكة وجنات المدينة ، وإلى معبد وابن سريج . وكان محمد زويد يغنى الكلمات نفسها التى غناها كل منهما فى أرض الحجاز ، كلمات الشاعر الشقى عُمَر بن أبى ربيعة ، والألحان ، لعلها هى نفسها ، والجو هو نفسه .

وما الفرق بين العوالى فى البحرين والحفائر فى مكة ؟ وما الفرق بين
المنامة فى البحرين ومرج ابن سعد فى المدينة ؟ وما الفرق بين معبد والزويد ؟
ثم ما الفرق بين جمهور المستمعين فى المدينة زمان وبيننا نحن الذين اجتمعنا
تلك الليلة نستمع إلى محمد زويد فى البحرين ؟ لعل الفرق الوحيد هنا ، أننا كنا
ليلتها مجموعة عرب نحمل أكثر من جنسية . (أبو فيصل) من الكويت ،
و (الدرويش) من قطر ، و (فخرو) من البحرين ، وآخر لا أعرف اسمه
من اليمن ، وأنا من مصر . وكنا مهزومين . فقد كانت حرب الأيام الستة تلملم
أذيالها . وكان بعضنا يحاول أن ينسى . وبعضنا يحاول أن يشمت . ولكن
الهزيمة كانت تطحننا جميعا ، والعار يرفرف على رؤوسنا كلنا ، والخزى هو
طابع الجميع .

ما أبعد الفارق بيننا وبين سميعة زمان .. فى الزمان ، وفى واقع الحال .
كانوا - عكسنا - يحتفلون بالنصر ، وكانت جيوشهم تزرع أعلامها فى أرض
الروم والفرس ، وكانت لهم دولة واحدة وجواز سفر واحد ، وكان موتاهم
شهداء ، وأحيائهم سادة . وكانت ليااليهم لياالى الملاح والأفراح ، بينما لياالينا هى
الهستيريا والعصبية والارتداد إلى داخل النفس ولعق الجراح . تبدلت الأمور
والأحوال بأولاده ، وتقطعت الأوصال والصلات . لم يبق فينا من السلف الصالح
إلا كلمات ابن أبى ربيعة . وهى ظاهرة صحية على أية حال ، ثم هى ظاهرة
فريدة ليس لها مثيل فى أى مكان . فليس هناك شعب يغنى أغنية عمرها ألف
وأربعمئة عام إلا شعب العرب . حضارة متصلة تضرب جذورها فى بطن
التاريخ إلى غور بعيد ، كشجرة الجميز الطيبة التى تضرب جذورها فى الأرض
إلى عمق عميق . وأسفاه الجذور طيبة ، والأفرع سامقة ، ولكن الأوراق
ذابلة ، والثمار بعضها فاسد ، وبعضها أصابه العطب والعطن .

ولكن ها هى البحرين ، على أى حال ، تحاول أن تصل الحاضر بالماضى .
وهي بالفعل تعيش فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل ! وها نحن ومعنا
سيدات والمينى جيب فوق الركبة ، وأحيانا فوق الرقبة . والإختلاط مباح .

والمرأة لها فى البحرين وجود ، والناس بالانجليزية ترطن وبالفرنسية تتلاعب ، والتجار شطار ، ولكن بشرف .

وان كنت محظوظا لأنى التقيت بالصدىق صالح شهاب فى البحرين .
وصالح هو وكيل وزارة الإعلام فى الكويت ، ولكنه فى البحرين أشهر من سبع كوبرى قصر النيل فى القاهرة . ولو يرشح صالح نفسه فى البحرين لصار نائبا عن عموم الأمة . والسبب أنه درس أيام الشباب فى البحرين . ولذلك فهو معروف على مستوى الحكومة ، وعلى مستوى السوق ، وعلى مستوى المتسولين الذين يحيطون بالمساجد .

ومن خلال أبو فيصل ، دخلت البحرين المخملية ، ورأيت البحرين المرتاحة ، وعشت مع البحرين الممتلئة الثرية . ولكن بحرين النوادى والثورة والطلبة ، أنا رأيتها بنفسى ، ودخلتها بمعرفتى . وقد بهرنى مارأيت وهزنى ماشاهدت . شباب كالورد يحلم ببحرين عربية ، وبيبحرين قوية ، وبيبحرين مركز إشعاع ، تؤثر فى شبه الجزيرة ولا تتأثر ، وتصوغ مستقبل المنطقة وتلعب فيها دور الضمير والفؤاد .

والحق أقول إن الفرصة كانت مواتية والظروف كانت مناسبة . والبحرين الصغيرة كانت تموج بالأفكار والآراء ، وتضطرب بالحياة والأحياء ، وكان فيها أكثر من رأى ، وأكثر من صوت ، بينما كل شىء حولها كان مجرد صحراء تمتد عشرات الألوف من الأميال كعملاق فارقتة الروح . وفى المواجهة تقف إيران تتربص وتتلمظ .

البحرين الصغيرة كانت واحة شبه الجزيرة ، و (باريس صحراء العرب) ، ومرفأ بحر الظلمات الذى ليس له شواطئ .

• • •

ولكن البحرين التى عرفتها لم تستمر ، حاصرتها مشاكل المنطقة وتغلبت

عليها فى النهاية وفرضت عليها قوانينها ! ومأساة البحرين تحتاج إلى شاعر عظيم كالمجنون يخلدها على طول الزمان ، وتحتاج إلى أكثر من مطرب يشدو بها فى السهرات ، ويسرح بها فى الأسواق . وقد يسأل سائل : وماهى مأساة البحرين ؟ وهل حدث لها مكروه لا قدر الله ؟ والجواب كما سبق وأن قلت : إن البحرين كانت واحة شبه الجزيرة ، وكانت حديقة الخليج ، وكانت بمثابة الرئة التى تتنفس منها صحراء العرب المحرقة . وكان عشمنا فى الله كبيراً ، أن تتسع دائرة الضوء التى تشع من البحرين لتشمل الخليج كله . ولكن الذى حدث كان عكس ماتوقعناه ، وأصبح النظام فى البحرين جزءاً من النظام فى الخليج ، وإن كانت لا تزال تتميز بأن العنصر الأجنبى فيها نادر للغاية ، وبأن الأمن فيها أحكم من الأمن عند جيرانها ، كما أن الجسر الذى ربطها بالسعودية جعلها فى مأمن إلى الأبد من أطماع الجالس على عرش فارس ، سواء كان يدعى الشاه أو يتلقب بالإمام . ومع ذلك أرجو أن تعود البحرين إلى سالف عهدها القديم ، حيث كانت ممراً ومقراً للأفكار الحرة وللفن العظيم .

وإذا كان الحديث عن البحرين ، فلا بد أن نذكر بالخير حاكم البحرين . أطيب الحكام العرب الذين عرفتهم والذين لم أعرفهم ، وإن كان أفقرهم . ولكن ماأشد غناه فى السماحة واللفظ وحرارة الاستقبال . ولا بد أن نذكر أيضاً كوكبة الشباب المثقف الذى يشترك فى توجيه دفة السفينة التى تقف الآن فى مواجهة أطماع إيران ، وترفع راية العروبة فى وجه التحديات والمؤامرات .

وهتفت وأنا أغادر البحرين فى آخر زيارة لها : « يارب ، احفظ بإرانتك القاهرة أرض البحرين الطاهرة » .

آل سعودى آلاواى !

ومن البحرين عبرت أنا الخليج، وعبرت السعودية، وعبرت البحر الأحمر، وحطت الرحال فى السودان. وإذا كان شعب البحرين يسيل رقة، فالرقة نفسها هى شعب السودان. فأنت فى الخرطوم مثلاً تستطيع أن تنام مفتوح الأبواب، ولن يجرؤ أحد أن يمس طعامك أو متاعك:

والحزب الشيوعى السودانى مثلاً يصرخ بالخناجر طوال النهار ضد حزب الأمة، وحزب الأمة يشهر الخناجر طوال النهار ضد الحزب الشيوعى، والحزب الوطنى يستنكر أعمال الطرفين. ولكن الجميع سيجتمعون فى الليل حول مائدة العشاء، وسيشربون جميعاً من نهر الويسكى الذى يجرى تحت الأقدام. ولما أبديت إعجابى بهذه الظاهرة، همس أحدهم فى أذنى.. هذه هى الطريقة السودانية. فالخصام لا يتحول فى السودان إلى كراهية، والخلاف لا يتحول إلى حقد، والنقاش لا يتحول إلى شجار، والشجار لا يتحول إلى معركة، والكل أصدقاء وأحبة.

والرجل فى السودان اسمه (زول) والمرأة اسمها (حبوبة)، وكل شىء فى السودان فسيح وعريض وممتد: الأرض الزراعية بلا حدود، والغابات تسد عين الشمس، والأنهار تجرى بإذن ربى، وبينها قنوات وروافد، والخير على قفا من يشيل، والسعى على المهل، والرزق مضمون عند السماء الصافية، والدنيا حظوظ.. ومزاجات!.

هكذا كانت الأحوال عندما هبطت السودان أول مرة. وشعرت منذ أول لحظة أنى رأيت هذا المكان من قبل. ولقد حدث لى فى السودان حادث لم يحدث لى مثله من قبل، ولم يحدث لى بعد ذلك قط. جلست على رصيف فى أم درمان مع مجموعة من الأصدقاء، كان بينهم سبت دودو حارس مرمى السودان الشهير وأعظم حراس المرمى فى إفريقيا يوماً ما، و(سبت دودو) معناها بالعربى أسد يوم السبت. وقد امتدت السهرة بنا وطالت، وكنا قد أكلنا فولا وبصلاً وكسرة وشرموت. وفجأة استأذنت، وبعد أن صافحت الجميع، انصرفت مسرعاً لا ألوى على شىء. ولم يسألنى أحد منهم إلى أين أنت ذاهب؟ فقد كان من المفروض أن أسهر معهم إلى أى وقت، فإذا رغبت فى العودة إلى (الجراند أوتيل)، ذهبت فى سيارة أحدهم. المهم أننى استأذنت فجأة، وانصرفت على عجل، ووقفت على بعد عشرة أمتار منهم بجوار ما تصورت أنه محطة أتوبيس. لماذا؟ لأننى ألغيت تماماً مسألة وجودى بالسودان، وتصورت نفسى على رصيف فى حى عابدين! وما دامت الساعة قد أصبحت الثانية صباحاً، فلا بد من عودتى إلى الجيزة قبل أن تتوقف وسائل المواصلات. ولكنى عدت إلى رشدى بعد دقائق، واكتشفت أننى على بعد آلاف الكيلو مترات من القاهرة، وأن الرصيف الذى كنت أجلس عليه منذ خمس دقائق، هو فى أم درمان وليس فى عابدين! وعندما عدت أراجى إلى شلة الأصدقاء السودانيين انفجروا ضاحكين، فقد اكتشفوا ما حدث للعبد لله من تداخل فى الزمان والمكان.

إلى هذا الحد أنسى نفسى فى السودان؟! نعم. وأنا مثلاً وقفت عند المجرن،

حيث يلتقى النيل الأزرق والنيل الأبيض ليخرج من عناقهما الخالد نهر النيل العظيم، يتدفق مخضوضراً معشوشباً نحو الشمال. أنا وقفت هناك ذات أصيل، وإذا بى أشم رائحة الأرض فى المنوفية. عند الشجرة، أنا تصورت نفسى عند القناطر الخيرية! أنا فى قرية الكدرو تصورت نفسى فى قرية بهناى فى المنوفية، أو فى قرية العزيزية بالجيزة، أو فى ميت يعيش فى الدقهلية! الجو هو نفسه، والطين نفسه والرائحة نفسها. وكل شىء هناك له مثل هنا، حتى الشجر والحجر والبنى آدمين!.

يا ميت حلاوة على السودانى الأصيل، إذا سكر فهو الشراب ذاته، وإذا ضحك فهو الفرحة نفسها، وإذا بان لك الصفاء والود، فلا صفاء ولا ود بعد ذلك. ولكن احذر السودانى إذا غضب، وهو لا يغضب إلا للشديد القوى. وكما أن فى كل جماعة الطيب والخبيث، والصالح والطالح، إلا أننى عندما أصادف سودانياً خبيثاً، أبدو كمن صعقه تيار، وكأنه من المفروض ألا يوجد سودانى خبيث، وكأنه من البديهي أن كل أبناء السودان من الصحابة، ومن أولياء الله الصالحين!.

وربما لهذا السبب، وأيضاً لأن كل السودانين طيبون، فأنا اتصورهم جميعاً لهم نفس الملامح، فالطيب الصالح يشبه على شمو، يشبه الدكتور عقيل، يشبه فاروق أبو عيسى، يشبه الدكتور عبد الحميد عبد الرحمن، يشبه الدكتور محجوب، يشبه خالد عباس، يشبه الدكتور عبد الحميد صالح.. فكلهم رجل واحد، ولأنه سودانى إذن فهو طيب، وهو إنسان بالرغم من اختلاف المذاهب والمناهج والطريق.

ولكن للحقيقة عرفت سودانياً اسمه (أبو آدم)، وهو مثقف من إياهم. ويوماً كان من أهل اليسار عندما كانت أعلام اليسار مرفوعة وأمواجه عالية، ولكنه خلع جلده فجأة، وانضم إلى يسار آخر، وإن كان يسلك عكس اليسار القديم. ولم تكن حركة الانتقال نتيجة دراسة ومقارنة واقتناع، ولكن لأن اليسار الجديد الذى انضم إليه كانت فلسفه كثيرة وشيكاته حاضرة. ولا أستطيع أن أقول بأن

(أبو آدم) هذا هو أخبث سودانى، ولكنى أستطيع القول بأنه أخبث بنى آدم .
وأغرب شيء أنه عض اليد التى امتدت له خلال محنته فى الجيزة، وتنكر
للناس الطيبين الذين احتضنوه أيام تشرده.

وعندما أبديت للصديق على شمو دهشتى من وجود سودانى من هذا النوع،
أجابنى الصديق على شمو مبتسماً: هكذا السودانى، إما نموذج من السماء،
وإما نموذج من الحضيض. ولأن الذين فى الحضيض قلة، لذلك ستجدهم فى
حضيض الحضيض. ولأن الحياء هو ميزة السودانى، فإذا زال الحياء عن
السودانى فقل عنه ما تريد.

وأنا لا أسوق مثال (أبو آدم) هذا لمجرد التفكه، ولكن لأن (أبو آدم) يتاع
الجيزة سيجرنا إلى شيء أخطر، إلى (أبو آدم) آخر كان يحكم السودان منذ
وقت قريب. وفى عهد (أبو آدم) النميرى، تحول السودان إلى ساحة معارك،
وتحولت الخصومة السياسية إلى حروب قبلية، وأصبحت كل أيام السودان من
أيام داحس والغبراء. والسبب أن (أبو آدم) النميرى استطاع أن يغير من
طبيعة السودان. فلأول مرة فى السودان يتعلق المخالفون فى رأى على
المشائق، وتجرى كل عدة أسابيع مذبحة فى الشارع، ويطلق النار على
المعارضين دون محاكمة. إنها أشياء جديدة على السودان، وهى من أفضال
(أبو آدم) النميرى، الذى تختلف طبيعته كثيراً عن طبيعة شعبه، والذى جاءت به
الأقدار التعيسة على رأس السودان، وعلى يديه تحول البلد الآمن المطمئن إلى
عش زنابير، ويفضله تحول النيل الأبيض إلى النيل الأسود، وتحول النيل
الأزرق إلى أزرق نيلة.

• • •

ومن كان يتصور أن الشعب السودانى سينتفض مرة كل عدة أشهر، وأحياناً
كل عدة سنوات ليقدم الشهداء تلو الشهداء، ولكى يزيع عن صدره كابوس
الظلم والظلام. لعلنى أستطيع أن أزعم بأنى كنت أتصور ما حدث لمعرفتى

بشعب السودان. والذي يريد أن يعرف شعب السودان على حقيقته، عليه أن يدرس على الطبيعة نيل السودان الأبيض ونيله الأزرق. فكلتا النهرين ينحدران من الجنوب إلى الشمال، يلتقيان عند أم درمان، ليتعانقا معاً، وليكتملا المشوار في نيل واحد لا هو أزرق ولا هو أبيض، ولكنه نيل فقط.. والسلام.

ولكن ما أبعد الفارق بين النيلين! النيل الأبيض طيب هادئ فسيح ما بين الشاطئين ضحل المجرى، وحيواناته ضخمة مثله، طيبة مثله: أفراس بحر، فيلة، وقطعان هائلة من الغزلان والزرافات تشرب على الشاطئين. ويخيل لمن يقف على شاطئ النيل الأبيض أنه نيل ميت، والسبب أن سطحه هامد وخامد، فلا موجة ولا دوامة ولا حتى سمكة تتلعبط، لأن السمك الذي تحت الماء سمك أهبل وطيب وعبيط وضخم الجثة. والسمكة الرشيقة في النيل الأبيض تزن مائة كيلو، وبعضها يصل وزنه إلى ثلاثة أطنان، واسمها (العجلة)، وهي أحياناً ضعف حجم البقرة، ويبيعونها بالكيلو على شاطئ النيل!.

وبالعكس تماماً تستطيع أن تصف النيل الأزرق. فهو نيل هادر ثائر عميق الغور، ضيق المجرى، متوحش وعنيف، تستطيع أن تسمع صوته من مسافة بعيدة، وهو ينحدر بعنف من فوق جبال الحبشة، دافعاً أمامه أطناناً هائلة من الحجارة والصخور والطمى، وفي أعماقه تتصارع وحوش بحرية هائلة، وتماسيح عملاقة تخطف حتى الفيلة التي تدنو من الشاطئ، وأسماك متوحشة لها حراب ولا حراب مقاتل زنجي من مدينة واو. وفي النهر دوامات تبتلع من يقترب منها، وأمواج تلطم الشاطئ بشدة، وتيارات تسحب من يقف في وجهها، وأعشاب سامة ينشق عنها قاع النهر تقتل من يأكلها أو يلمسها.

ومن صفات النيل الأزرق وصفات النيل الأبيض، استمد السوداني صفاته، فهو طيب هادئ كالنيل الأبيض، وهو أيضاً هادر ثائر متوحش كما النيل الأزرق، وهو لا ينام عن ثأره، ولو نامت كل الأحياء، وهو لا ينسى الإساءة، وإن كان يبدو للسذج أنه حلیم إلى ما لا نهاية. ولا أحد يستطيع أن يحكم السوداني بالقوة أو يفرض عليه نظاماً بقوة السلاح.

ولقد أخطأ النميرى حين تصور أنه قادر على أن يحكم شعباً رغم أنفه، وهو من أجل أن يبقى فى السلطة، جعل فى كل بيت قتيل، وجعل بينه وبين كل سودانى ثأراً. ولأن الخطأ كان فادحاً، فالثمن كان أفدح. وعندما سقط النميرى من فوق عرشه الذى أقامه على تل من جماجم الشهداء، كان السودان نفسه قد تغير. لم يعد السودان بعد النميرى هو نفسه السودان قبل النميرى، والفرق بينهما هو ذات الفرق بين هيروشيما قبل القنبلة الذرية وهيروشيما بعدها.

وإذا كان هذا هو السودان السياسة، فالسودان الناس ما أحلاه. والسودانى كالمصرى سيصبح صديقك بعد أول كأس، وسيصبح أصدق الأصدقاء بعد الكأس الثالثة، وقد يموت من أجلك بعد أن تفرغ الزجاجاة. وإذا أحببك السودانى فكل شئ فىك جميل، حتى النهار الذى وصلت فيه هو أجمل الأيام، والمناسبة التى جئت من أجلها هى أحلى مناسبة.

والمرأة السودانية إذا أحببتك ستمنحك كل شئ، وهى رقيقة وعذبة وحبابة ومفرقة فى الرومانسية، ومتأثرة بعض الشئ بروايات الحب فى السينما، وبعضهن يمثل فى الحياة أدواراً سبق لهن مشاهدتها على الشاشة. حتى المرأة السودانية المبدولة للراغبين فى حى الامتداد تختلف عن أى امرأة مثلها على ظهر الأرض، فالونسة هى الشئ الأهم، والمناقشة تأتى فى المرتبة الأولى، وقبل كل شئ. وقد يزدرد الزبون عشر زجاجات بيرة قبل اللقاء والعناق، فلا شئ يدعو إلى العجلة.

والبنت السودانية العادية تقطر خفراً وحياء، وهى تتعثر حين تمشى، وتتكر حين تميل، وتصاب برصاصة إذا صوبت نظرتها إليك، وليس أجمل من هذا العصير العربى الإفريقى، ولا أمتع من هذا المزيج السامى الزنجى الذى أنتجه عرب قحطان وزنوج الدنكا، وكانت نتيجته هذا الجمال (العربى)، أو هذا الجمال (الزنجى) إذا صح التعبير!

ولعل هذا يفسر لماذا تزوج كل أفراد الجيش المصرى الذين خدموا فى السودان أو بعضهم من بنات الجنوب، وبعضهم أقام هناك فلم يرح مكانه، ولم

يعد إلى شمال الوادى. تعرفت هناك على مصرى عجوز يفتح دكان بقالة فى الخرطوم. كان قد ذهب جندياً فى جيش مصر وتزوج هناك وأنجب أولاداً، وعاش فى التبات والنبات، فلما انتهت خدمته أثر البقاء فى الخرطوم، واشتغل بالتجارة، وازدهرت أعماله، ولكنه فى الخامسة والخمسين أصبح وحيداً، فقد ماتت زوجته، وتفرق عنه أولاده، وعندئذ قرر العودة إلى مسقط الرأس. وعندما التقيت به فى الخرطوم، كان قد تجاوز السبعين ولكنه لم ينفذ حلم العودة قط، بالرغم من أنه كان يذهب كل عام إلى محطة السكة الحديد ويقطع تذكرة العودة، ويذهب إلى السوق فيشتري كل ما يحتاجه من أغراض، ويعد الحقائب ويجلس فى انتظار يوم السفر، إلا أن يوم السفر هذا لم يأت قط، كأنما فى الأرض خيوطاً تجذب الرجل فلا يستطيع فكاكاً، أو كأن قدميه انغرستا فى طين السودان فلا يستطيع الحركة. لقد كان قديره أن يبقى هناك حتى آخر أيام العمر. ولم تكن هذه قصة (عم سليمان) وحده، ولكنها قصة ألف سليمان على الأقل، كلهم تمنوا العودة وكلهم هموا بها، ولكنها لم تتحقق لأحد منهم قط.

وإذا كان هذا هو السودان العربى الشمالى، سماحة من غير تفريط، ومحبة بكرامة، وصبر ولكن بدون يأس، فإن السودان الإفريقى الجنوبى شيء آخر. وإذا تصورت جنة الله فهى ستكون حتماً على غرار واو أو جوبا، حيث الغابات الفسيحة تجرى من تحتها الأنهار، وحيث فاكهة الجريب فروت تداس بالأقدام، وحيث كل شيء، وأى شيء بازغ وآفل، وأى شيء أكل ومأكول.

والمرأى من هؤلاء!

وكل بلاد العرب كوم وجنوب السودان كوم آخر. إنه غابة العرب الوحيدة (معذرة لأتى لم أزر الصومال) وهو جنة الله فى الأرض. وشعب الجنوب طيب وغليان وعلى الفطرة، وهو لم يزل على حاله كما خلقه الله، ولولا مؤامرات الاستعمار على جنوب السودان، لكان لدينا الآن غابة بتكلم عربى، مع الاعتذار للفنان الأرزقى سيد مكاوى.

ولكن الخواجة الذى كان يحكم ويتكلم، وضع ستاراً حديدياً حول الجنوب، فلا أحد يدخل إلا بإذنه، ولا أحد يخرج إلا بإرادته. الأبواب مفتوحة للمبشرين ومغلقة فى وجه الوعاظ، الكنائس مباحة والمساجد ممنوعة، اللغة الانجليزية متداولة واللغة العربية مطاردة، كأنها بعض لغات الشيطان. ولو كان الخواجة أصلح فى الجنوب، لو أنه نشر التعليم، لو أنه أقام نظاماً للحماية الصحية، إذن لغفرنا له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ولكن كل شيء باق على حاله: المرض يفتك بالسكان، والجوع يفرى البطون، والجهل يعمى البصيرة والإبصار.

أرادوا الجنوب غابة للصيد ومضطجعا للراحة والاستجمام!.

أغرب شيء رأيته في الجنوب تمثال للسيدة العذراء والسيد المسيح، الملامح زنجية واللون أسود، يريدون إيهام أبناء إفريقيا أن المسيح كان من أبناء القارة السوداء. ولقد وقفت أمام التمثال أتأمل واتذكر قول شاعر إفريقي من غانا: «عندما جاء المستعمرون كان معهم الإنجيل ومعنا الأرض، وبعد وقت قصير أخذوا منا الأرض وأعطونا الإنجيل»!.

رأيت في مدينة واو شاباً عارياً تماماً من الجنوب، ولكنه يرتدى قبعة فوق رأسه، ويدخن البايب، ويرطن بكلمات انجليزية، لعله لا يفهم معناها! رأيت آخر يستند إلى جذع شجرة ضخمة ويغنى أغنية أمريكية ذائعة الصيت (هابي بيرث داي)! وفي أحد شوارع جوبا استلفت نظري عدد من الشباب يرقص عارياً تماماً، وفي الطريق العام، وعلى أنغام موسيقى راقصة، تنبعث من جهاز راديو رقصة (الهاي لايف) وكانت هذه الرقصة هي الشيء الوحيد الذي تركه المستعمرون خلفهم في الجنوب. ولكن بالرغم من كل ما فعله الاستعمار في الجنوب، فقد اكتشفت تعاطفاً شديداً لدى الجنوبيين مع عرب الشمال.

وأبكاني ذات مغربية ولد جنوبي يغنى داخل الغابة في مدينة جوبا لحناً غاية في الأسى والشجن. كان الجو ساحراً والشمس انحدرت وراء الغابة، وفي السماء قطع سحب ضالة، ونسمة هواء منعشة، ورائحة فواكه طازجة تحلق في الجو. وكان الولد الزنجي يغنى بصوت أشبه بصوت عبد الحليم حافظ مخلوطاً بصوت مطرب الخليج محمد زويد معجوناً بصوت عمنا القديم الشيخ يوسف المنيلوي، وكانت كلماته هي عصير مأساته.. خليط من العربية والانجليزية والרטانة. (المندكورو) هم أبناء الشمال، ولا أدري في أي لغة تكون. و(ماتوا) معروفة بالطبع. و(سمبله) أصلها انجليزي ومعناها ببساطة. و.. آك سوري إكوانى! (آك) ومعناها آخ، حرف نذب ولطم. وتستطيع أن تجد أصلها وفصلها في قاموس أختنا الخنساء التي قضت العمر كله تنذب أخاها صخراً. و(سورى) هي سورى بالانجليزية، بمعنى آسف. و(إكوانى) هي

إخوانى بالعربى. والولد الجنوبى يعلن أسفه وأساه على إخوانه (المندكورو) من أبناء الشمال الذين ماتوا ببساطة، أو ماتوا أونطة، أو ماتوا بلا سبب. وهو بعض بنان الماضى، ويقضم أظافر الأمس، على هؤلاء الإخوة الذين ماتوا بلا ننب، ودفعوا حياتهم بلا سبب.

وهذه الأغنية كانت منتشرة فى الجنوب عقب الحرب الأهلية التى نشبت بين الشمال والجنوب فى عهد الفريق عبود. ولقد أريقت دماء كثيرة فى الغابة، وضاع المئات من زهرة شباب السودان من شماله وجنوبه، وانتهت الحرب بإطاحة نظام عبود. وبقي الشمال فى حالة والجنوب على حاله، ولم تحل الحرب مشكلة واحدة من مشكلات السودان. أك سورى إكوانى.

ولو كانت لدى أبناء قحطان وعدنان خطة، لو كان لديهم برنامج، لو لدى الأثرياء منهم بعد نظر وعاطفة قومية حقيقية، فإن جنوب السودان يمكن أن يتحول إلى جنة العالم خلال عشر سنوات. إنه يمكن أن يصبح حديقة العرب جميعاً، وحقل العرب عموماً، وعماد مصانع العرب فى كل مكان. وهنا أعظم أخشاب العالم، وألذ فواكه الأرض وأغنى مراعى الدنيا، وأعلى جلود عرفها البشر. وهنا الأناناس فى حجم كرة القدم، ولكنه يترك على الأرض حتى يتحول إلى هباء. وهنا الصمغ يهمل حتى يجف على الشجر. وهنا مزرعة ثعالب الكرة الأرضية، ولكن جلودها تتعفن بعد الموت. وهنا حيوانات من كل صنف وعلى كل لون، عظامها تصلح أسلحة، وجلودها تصلح أحذية، ودهنها يصلح كترياق.

ولكن يبدو أن السادة العرب فى واد آخر عن أراضيهم وعن خيرهم. ولماذا المشقة وكل شيء حاصر فى مخازن (هارولدز)، وكل شيء موجود عند مخزن (لافابت)، وكل شيء معروض فى شارع (أكسفورد). وأخشى أن نبكى على الجنوب يوماً لو ضاع من أيدينا، كما نبكى اليوم على الأندلس. فالجنوب ليس أقل أهمية من الأندلس، إن لم يكن أخطر، فهو بوابة إفريقيا، وحدوده مفتوحة على الحبشة وزائير وإفريقيا الوسطى، وهى مفتوحة لأن الغابة ليس لها بوابة،

فكل شيء سايح ومتجول وعابر سبيل. فهكذا طبيعة الغابة، لا شيء يحدّها ولا شيء يتحكم فيها. ولكن للغابة حديث آخر. نرجو الواحد الستار أن يبقينا وإياكم حتى نهتك لكم هذه الأسرار.

• • •

والغابة أحوال وأهوال ومصائب سودة، ورزايا ونوايب، والداخل فيها مفقود والخارج منها مولود، أو هي هكذا على الأقل في نظر الذين لا يعرفون الغابة. ولكنها في نظر الآخرين الذين يعرفون الغابة شيء آخر، جزء من الحياة، يجري فيها ما يجري في شارع (الشانزليزيه) في باريس أو شارع (ريجنت) في لندن. صحيح أن كل شيء فيها آكل ومأكول، ولكن من قال إن هذه ليست صفة المدن الكبيرة؟ الأسد آكل الذئب، والذئب آكل الثعلب، والثعلب آكل القنفذ، والقنفذ آكل الثعبان، والثعبان آكل الطير، والطير آكل الجميع عندما يتحول الجميع إلى جثة مطروحة في العراء!.

والأسد هو ملك الغابة.. خرافة. صحيح هو ملك الغابة بمرسوم أصدره الإنسان، ولكن هذا المرسوم سيظل حبراً على ورق، لأن حيوانات الغابة لم تسمح به قط. وأعجب العجائب أن ملك الغابة هو الحيوان آكل الأعشاب: الفيل والجاموس ووحيد القرن. هؤلاء جبابرة الغابة، وهم أبطال الوزن الثقيل فيها، ولهم من الجميع المهابة والتقدير والاحترام. ووحيد القرن هو أقوى الجميع وأغباها، وهو مثل ليستون، مصرعه في غبائه. وتأتى الجاموسة بعده في القوة والغباء. ويحتل الفيل في الغابة مكانة محمد على كلاً في الملاكمة، القوة والذكاء. ولذلك سيبقى متربعا على عرش الغابة وإلى آخر الزمان. والأسد المهاب أبو الزئير إذا التقى بالفيل في الغابة، تنحى عن الطريق وضرب للفيل تعظيم سلام.

والأسد هو أكسل حيوان في الغابة، وهو في أسرة الأسود لا عمل له إلا النوم والتأوب، أما القنص والعراك وحماية الأسرة وتدبير غذائها فمن

واجبات اللبوة، وهى إذا هبرت فريسة أعطت الأشبال أولاً، وما تبقى فللزوج النائم الوخمان، وتبقى هى الرمز الأبدى للفداء، أول من يصطاد وآخر من يأكل. وإذا أكل الأسد فهو آخر نوم وأحلى أحلام. وتستطيع أن تمر به وأنت آمن، وأن تلعب له بأصابعك فى فروة رأسه أو تزغزه فى بطنه، فهو لن يتحرك ولن يتململ، وهو لن يصير خطراً إلا إذا جاع.

وفى قانون الغابة، أنك إذا أردت أن تصطاد أسداً، سمحوا لك بالدخول وحدك ما فىش مانع، مع آخرين زى بعضه، لأن أى مخلوق يحمل بندقية فى استطاعته أن يعود من الغابة وعلى كتفه جثة أبو السباع. أما إذا أردت أن تصطاد فيلاً، فهناك سيضعون لك ألف شرط وشرط. لأنه آه وألف آه إذا انطلقت الرصاصة نحو الفيل ولم تصب منه مقتلاً، عندئذ نهار الصياد أزرق، وليل الغابة كحلى، وستقوم القيامة على الجميع ولن تقعد أبداً. وليس فى الوجود أخطر من فيل يسيل منه الدم، سيتحول هذا الوديع إلى بركان تقذف منه الحمم تحرق ما حوله، فقد يخرج من الغابة ليهاجم القرى والمدن أيضاً، وسيحتاج الأمر عندئذ إلى كتيبة من الجيش لوقفه عند حده. لذلك فإدارة الغابة تشترط عليك أن تصطحب معك عشرة رجال مدربين على صيد الفيل وبأسلحة حديثة. وكاذب من يدعى أنه اصطاد فيلاً فى الغابة. صحيح أنه أطلق النار، ولكن الرصاصة القاتلة حتماً سيطلقها هؤلاء المدربون العشرة، ولكنهم يتركون للصياد أن يعود إلى المدينة حاملاً على كتفه سن الفيل. وماذا يهم، مادام يدفع الصياد تكاليف الرحلة وأجر الحراس، ويقدم الطعام والشراب أيضاً.

ولذلك ستبقى هواية صيد الفيلة وقفا على السادة أصحاب الملايين؛ لأن صيد فيل واحد قد يكلف إقامة شهر داخل الغابة وعدة ألوف من الجنيهات. ولكن الفيل إذا لم تعترضه لا يعترضك، وهو نوق ومؤدب ودمث للغاية. وهو إذا شعر بدنو الأجل سار مئات الأميال داخل الغابة ليعود إلى مسقط رأسه؛ لأنه ينبغى أن يلقى حتفه هناك. ولحمه يأكله سكان الغابة، ويقسمون لك أنه ألد من لحم الجاموس، ولكن ألد لحم فى الواقع وأعلى لحم أيضاً هو لحم القروء.

والصيادون إذا اصطادوا القروء، أرسلوا الشباب منها إلى حدائق الحيوانات، والعجائز باعوها للقرداتية يسرحون بها على المقاهى والحانات. أما النسانيس الصغار فهي تذبح وتعلق فى محل جزار، وهى أغلى اللحوم سعراً فى إفريقيا. وليس فى الغابة إلا المشاحنات والمشاجرات والافتراس. ولكن أخطر عراك هو الذى يدور بين الفيل ووحيد القرن، إنه صراع الجبابرة، وهى معركة ليس فيها غالب ولا مغلوب، وفى الأغلب ينتصر الفيل، ولكنه حتماً يموت بعد المعركة بأيام وأحياناً بساعات.

ولكن المباراة الحقيقية هى بين الوحش والإنسان، وهى مباراة عامرة بالإنارة، غنية بالفن، والنصر فيها غالباً للإنسان؛ لأن العقل أقوى من العضلات، والذكاء فوق الأظافر والأنياب. وأى وحش فى الغابة يفر هارباً إذا رأى شبح الإنسان. لا يهجم على الإنسان إلا من ذاق لحم البشر. ويقال - والعهد على الأكل - إن أذ لحم فى الوجود هو لحم الإنسان؛ والسبب أنك لا تستطيع أن تذوق اللحم، أى لحم بدون ملح، ولكن لحم البنى آدم لا يحتاج إلى ملح. إن ملحه منه فيه، على رأى الممثل سعيد صالح عبيط الفن العظيم. ولذلك إذا تذوق الوحش لحم البنى آدم، صار من آكل لحم البشر، وهو عندئذ سيعزف عن أكل لحوم الحيوانات، ويبقى كل همه أن يظفر بواحد من بنى آدم يفطر به ويحمد الله، وسيبقى بعد ذلك غريباً عن أهل الغابة، وهو سيهجر الغابة بعد ذلك، ويعيش على أطرافها، وستصبح القرى الأهلة بالسكان هى مجال عطه بعد ذلك. ولكن الحيوان لن يكتب له أن يعيش طويلاً، فسيلقى حتفه بيد الإنسان الذى عشقه كثيراً، وتمنى لو يغرس أسنانه فى لحمه ليل نهار.

وهناك خطر انقراض وحيد القرن والجاموس الوحشى: هنود حمر الغابة، كل غابة وفى كل مكان. وإذا كان الجاموس موجوداً بكثرة فى كل الغابات، فإن وحيد القرن لا وجود له الآن إلا فى غابات السودان؛ السبب هو الغباء، وأنت إذا هربت من وجه جاموسة وصعدت فوق شجرة، فإنها ستربض لك تحت الشجرة، لا تأكل ولا تشرب ولا تنام، وستموت الجاموسة حتماً، بينما يكون

الذى فوق الشجرة قد هبط منها خلصة واختفى فى زحام الغابة عن الأنظار،
أما وحيد القرن، إذا وقع فى كمين داخل الغابة، فإنه لا يسعى إلى تخلص
نفسه، لكنه سينتحر على الفور، وسيتكفل النمل الأبيض بلحمه، وتبقى عظامه
مادة رئيسية لصنع السلاح.

حكايات الغابة ما أعجبها وما أغربها. حكايات تقشعر منها الأبدان.
وسبحان مدير الأكوان.

على أبواب يافا !

أنا وقفت على باب العراق سبع سنوات استجدي الدخول دون جدوى .
كان نوري السعيد يحكم العراق ويتحكم فيه ، حتى خيل إلى أنني لن أدخل
العراق في حياتي . وقبل الوحدة بين مصر وسوريا ، كان العبد لله في
دمشق ، وكانت دمشق وقتئذ قلب العروبة النابض ، والتقيت هناك بعدد
من السياسيين العراقيين ، أنكر منهم عزيز شريف والدكتور صفاء
وعبد القادر إسماعيل وآخرين ، وقد حملوني رسالة إلى عبد الناصر . ولما
كنت محرراً في جريدة الجمهورية وأنور السادات رئيساً للتحريض ، فقد سلمتها
إلى السادات ليسلمها إلى عبد الناصر . وبعد أسبوع من تسليم الرسالة فصلوني من
الجريدة . وبعد أسبوع آخر جردوني إلى سجن الواحات . ويعلم الله أنني لم
أكن أعلم محتويات الرسالة ، ولم أقرأ حرفاً مما فيها على الإطلاق ، ولكن
اكتشفت بعد سنتين من السجن أن الرسالة كانت تحمل إنذاراً إلى عبد الناصر ،
بأنه إذا أقدم على حل الحزب الشيوعي في سوريا ، بعد الوحدة ، فإن الأحزاب

الشيوعية العربية ستكافح في المستقبل ، ولكن في طريق آخر غير طريق الوحدة والقومية .

وأغلب الظن أن الحزب الشيوعي العراقي اعتقد حسب مفاهيمه عن (الأنزواء الارتوازي والالتحام الشنكبرى) أنني مندوب عبد الناصر في دمشق . وأغلب الظن أيضا أن عبد الناصر بعد ما قرأ الرسالة ، اعتقد حسب تقارير الأجهزة أنني مندوب الحزب الشيوعي في العراق . وهكذا ضاع العبد لله بين سوء فهم الحزب الشيوعي العراقي وسوء تصرف أجهزة مصر . ويشهد الله أيضا أن عمنا أكرم الحوراني كان الوحيد الذي اهتم بأمر العبد لله ، فسأل وزير داخلية مصر عن المصير الذي انتهت إليه ، وبعد عشرة أيام - هكذا حكى لي عمنا أكرم الحوراني - أنكر وزير الداخلية وقتئذ أن السجون المصرية تضم محمود السعدني أو واحدا بهذا الاسم .

وهكذا فإن الحزب الشيوعي العراقي مدين لي بغامين كاملين قضيتهما في سجن الواحات الخارجة . وأقول أيضا إنني في غاية السرور لأن الوزير عامر عبد الله ذكرني بالدين ، وهو الذي ذكرني في بغداد أخيرا . وأنا أقول : المسامح كريم ، وما يصيب الريش بقشيش ! المهم ياسادة ياكرام أنني حاولت بعد خروجي من السجن أن أذهب إلى بغداد ، ولكني لم أستطع الحصول على تأشيرة الخروج من القاهرة ، ولذلك صرفت النظر نهائيا ، وقلت لعلها حكمة أن أفضى العمر كله ولا أرى بغداد ، ولكن شامت الظروف أن يسقط نظام عبد الكريم قاسم ، وأن أجد نفسي فجأة في شوارع بغداد .

والحق أقول : إن بغداد كانت بالنسبة لي كحلم . عاصمة إمبراطورية العرب الثانية بعد دمشق ، مقر أبو جعفر المنصور وهارون الرشيد ، وعاصمة السحابة التي تمطر حيث تشاء ، فسيأتي إليها خراجها .. أعظم عبارة قيلت عن إمبراطورية في كل الأزمان .

هنا في بغداد عاش أبو نواس ، يدعى الانحلال ويجهر بالدنایا لينجو من قبضة السلطة ويحظى بعطف السلطان . وهنا عاش المتنبي ، وأصيب بعقدة

حياته حين حاول شراء عدد من البطيخ بدينار ، ويحمله المتنبي على كتفه ، ورفض البائع وباع البطيخ لآخر بنصف دينار ، ويحمله البائع على كتفه . ووقف المتنبي يتأمل البائع وقد خيل إليه أن فيه مس من الجنون ، ولكن البائع شرح الأمر للمتنبي وقال له مستهزئاً : « هذا رجل يملك مائة ألف دينار » . حكمة ، أما الغنى فيعطى ويزاد ، وأما المتنبي فيؤخذ منه ! ولعل هذه الحادثة كانت السبب في أن المتنبي حرص العمر كله بعد ذلك على أن يكون من أغنياء العصر ، ولعله مدح الجميع حتى لا يرفض بائع بطيخ آخر أن يبيعه بدينار ماسمح لغيره بأن يشتريه بنصف هذا المبلغ ! .

ولكن ياميت حسرة على بغداد كما رأيته بعيني رأسي في عام ١٩٦٥ . شوارع تشكو من قلة الزيت ، وأسواق تشكو من قلة التنظيم ، وظلام وخمول ، ومدينة فيها من الخرائب أكثر مما فيها من منازل . وتعجبت كيف صرخ المأمون حين رأى مصر وقال متعجباً : « لعنة الله على فرعون ! طغى فقال : أليس لي ملك مصر ؟ » ، إذن ماذا يقول لو رأى ملك بغداد ؟ لابد أن بغداد كانت على زمن المأمون غيرها في عام ١٩٦٥ .

وأغلب الظن أن بغداد دمرها المغول ثم العثمانيون ثم الحكم (الوطني السعيدى) نسبة إلى نوري السعيد . حتى الطرب خلا منه بلد إسحق الموصلى وابنه ابراهيم . كان القبناجي قد اعتزل ونرجس شوقي هاجرت . ومات عندليب العراق ناظم الغزالي ، طيب الله ثراه . حتى الشعر أصيب بالسكته في بلد المتنبي وعلى الجهم ، هاجر عمنا الجواهري واختفى بلند الحيدري ، وانزوى عدنان الراوى يحتضر ، وغاب عبد الوهاب البياتي وعلى الحلبي وشفيق الكمالى عن الميدان . أين العراق إذن ؟! البلد الذى كان يسكنه أربعون مليون نسمة في زمن العباسيين ، وكان حقل الحنطة لإمبراطورية العرب . ومن الذى ارتكب الجريمة ؟ فأفرغ العراق من سكانه ، وأفرغه من خيراته ، ويوشك أن يترك أنفاسه ولا يتركه إلا ميتاً بلا حراك . إنه العهد الملكى السعيدى ، الذى اعتبر التمر مصدراً أساسياً للرزق ، واعتمد العمالة

اتجاهها استراتيجيا في السياسة ، وكرس الإعدام عقوبة لكل وطني أو شيوعي أو بعثي ، يرفع علم العروبة ، ويطالب بأن تكون بغداد قبلة للعروبة وليس مقرا أو ممرا للأحلاف . ولما اطلعت على بغداد في ذلك الزمان وما فيها من غرائب وأضداد ، هتفت : « يارب احمنى من أصدقائي ، أما أعدائي فأنا كفيل بهم ! » .

والحق أقول إن معالم بغداد التي انطبعت في نفسي عام ١٩٦٤ و عام ١٩٦٥ هي التي جعلتني لحظة خروجي من مصر عام ١٩٧٤ لا أذهب إلى بغداد ، يممت غربا نحو لندن ، وعشت في لندن تسعة أشهر متواصلة اتسكع في شوارعها ، وارتاد نواديها ، وأقضى أغلب النهار في مستشفياتها . فقد كانت حبيبة قلبي (هالة) طريحة الفراش ، لم تنته من إجراء العملية الجراحية بعد . ولأول مرة حقا في حياتي أشعر بالضيق . اشتاقت نفسي إلى روائح بلادنا ، واشتاقت أذاني إلى سماع الشيخ رفعت والشيخ عبد الباسط عبد الصمد ، وبكيت بالدمع لأنني لم أجد في لندن رصيفا واحدا يتسع لمقعدين ، واحد ليّ واحد للعبد الفقير زكريا الحجاوي ! نجلس ونندرش ونسخر من أنفسنا ومن الناس . ولذلك قررت أن أهجّر لندن . فاتجهت إلى بيروت ، ومن بيروت إلى الدوحة حيث كان عمنا زكريا الحجاوي يعيش هناك . وقد داخ السبع دوخات قبل أن يتوكل على الله ويموت . ومن الدوحة إلى أبو ظبي والكويت . رحلة عذاب متصلة مشيناها على الشوك أحيانا ، وعلى السيف أحيانا ، وعلى أبواب الله في كل حين ! .

وأناحت لنا الرحلة العجيبة اختبار أمة العرب على الطبيعة ، وخرجنا باكتشاف مهم ، وهو أنه لا عرب هناك ولا يحزنون ، وإنما نحن عرب في الإذاعة وأعداء في الواقع ، وأننا عرب باللسان وقلوبنا شتى ، وأن أي إنجليزي أو أي أمريكي أو أي هندي أو أي إيراني ، له في بلاد العرب السلام والضيافة ، وللعربي المهانة والمثلة والحظ التعيس ! .

ومن أجل سلاطة قلمنا وجارح كلماتنا ، طردنا من بلد عربي باللطافة ،

ومن آخر بالتهديد ، ومن ثالث بالعنف ! وهكذا وجدت نفسي أخيرا في بغداد . وبعد عام من إقامتي في بغداد ، سألتني عربي من إياهم وكان يجلس معي في فندق دار السلام عن الفرق بين بغداد وعواصم عربية أخرى ؟ فقلت للأخ العربي إياه المتبلطن بالفرو ، والمتدفىء بأوراق النقد : « بالنسبة إلى شيء واحد في بغداد أفضل منه في أي مكان آخر ، وهو أنني في بغداد أعيش وأشعر وأعامل كمواطن عراقي » ، وكانت هذه حقيقة لا تقبل الجدل . فأنا على طول مالفت ، وعلى طول مانطيت ، لم أشعر منذ غادرت مصر ، وفي أي بلد عشت فيه وسكنت ، أنني مواطن ، إلا في بغداد .

ولم تكن المعاملة مقصورة على العبد لله باعتباري من المشتغلين بالكتابة والسياسة ، أو لأنني كنت شهيرا في بلادى يوما ما . ولكن هذه هي المعاملة التي يلقاها كل عربي في بغداد . مرحبا بالجميع ماداموا عربا . لهم مال للعراقيين من حقوق ، وعليهم ماعلى العراقيين من واجبات . شهادة حق على أن الشعار المرفوع (وطن واحد) ليس للتجارة وليس للاستهلاك المحلي أو العربي ، ولكنه شعار وجد للتطبيق ، وأنه إيمان لدى كل فرد في الحزب الحاكم ، من أحمد حسن البكر إلى آخر عضو في الخلية الحزبية في الأهوار . ويكفى أن تكون عربيا حقا لكي تجد مكانا لك في بغداد . الجواسيس فقط والخونة هم ممنوعون من الإقامة . ولذلك ستجد الجميع هناك في أول تجربة من نوعها في الوطن العربي : الشيوعى والبعثى والناصرى والليبرالى والوطنى الذى يقاتل ضد المصالح الأجنبية والاستعمار . ولو نجحت التجربة - واعتقد أنها ستنجح - ستمهد الطريق لصياغة علمانية جديدة في الوطن العربى (التجربة فشلت للأسف الشديد) .

وإذا كانت هذه هي بغداد السياسة ، فبغداد الشارع آخر حلاوة وآخر جمال . والعراقي العادى طيب ، فيه من المصرى ثقته الشديدة فى كل من يلقاه ، وهدم الحواجز بينه وبين كل من يلقاه من الناس . وإذا كان المصرى على استعداد للموت فى سبيل صديقه الذى لم يتعرف عليه إلا منذ بضع ساعات ، فإن

العراقي يمكن أن يدخل معركة الهول من أجلك ، خصوصا إذا كنت عربيا وغريبا في بغداد . وإذا كان العراق مع ليبي في ليبيا ، سينتهي بموت الغريب ، فالعراق في العراق مع عراقي ، سينتهي بموت العراقي . لأن العراقيين الذين سيوجدون لحظة العراق ، سيقفون لإمالة إلى جانب الغريب . وإذا عشت في العراق فستنسى بلادك وستنسى أصدقاءك ، لأن كل العراق سيصير بلدك وكل العراقيين سيصبحون أصدقاءك . عندما سكنت داري أول يوم في (المنصور) ، انهالت علينا الأطعمة من البيوت المجاورة ؛ لأنه هكذا يعامل السكان الجدد في العراق .

والعراقي العادي بسيط للغاية ، يضحك من الأعماق ، ويبكي من الأعماق ، ويسيل رقة ، ويهتز غضبا . لذلك أحذرك من العراقي إذا غضب . ولا يغضب العراقي إلا لكرامته ، وما عداها فكل شيء يهون . وإذا كنت قد حرصت على أن أكرر كلمة العراقي (العادي) ، فأنا أقصدها ؛ لأن هناك عراقيا آخر هو صنف الموظفين في دوائر الحكومة القديمة ، في الجمارك والجوازات والتربية والتعليم . هناك حيث اللوائح التي وضعها السلطان عبد الحميد والنصوص التي وضعت لإرضاء السلطان رشاد ، ستجد صنفا آخر من العراقيين ، ولذلك إذا أردت أن ترى وجه العراق المشرق ، فلا تذهب إلى الجمارك ، لأنك ستدوخ دوخة الأرملة ، وستبكي بكاء الخنساء ، وستذهب قصتك في الأجيال ولا قصة النبي أيوب ! ولما اطلعت على سلوك رجال الجمارك ، هتفت : « يارب يا حفيظ ، نجنا من هذا السلوك المغيظ ! » .

والحق أقول إن الهيكل الوظيفي ورثته ثورة العراق من عهود سابقة . ولأن البشر لا يتغيرون بسهولة ولا بالسرعة المنشودة ، فأغلب الظن أن الأمل سيكون في الأجيال الجديدة . وأنا أقول الآن بعدما عشت في العراق عامين : إن العراق سيتحول تحولا جذريا إلى الأفضل والأرفع لو ساد فيه هذا الاستقرار الذي يشهده الآن ، وهذا لم يحدث في تاريخه الحديث من قبل . نعم ، تحتاج بغداد إلى عشرين عاما على الأقل لكي تصبح شيئا مختلفا عما كانت عليه من

قبل . شيء باهر وجميل . لأنه في السنوات العشر الأخيرة تحولت بغداد مثلا إلى حديقة كبيرة . وتستطيع أن تقيم الآن في بغداد وأنت آمن حتى ولو كانت أبواب دارك مفتوحة .

وأقول أيضا وأنا أمسك الخشب : إن مشكلة المشاكل في العالم - التضخم - لم تدق أبواب العراق بعد . صحيح السيولة متوافرة وموجودة ، ولكن البضائع أيضا متوافرة وموجودة . ولعل العراق هو البلد العربي الوحيد بعد ليبيا في رخص الأسعار . وتستطيع لو كنت في بغداد ، وإذا كنت أعمى مثل حالي ، أن تصنع نظارة طبية في محلات القطاع العام بثلاثة دنانير ، وثمنها في لندن مائة جنيه بالتمام والكمال . وكيلو التفاح بعشرين قرشا ، وكيلو الخيار في الصيف بدرهم ، وكيلو اللحم بدينار . ولكن الذي يحتاج إلى وقفة طويلة هو عملية الاستهلاك . إذا نزلت أي كمية من التفاح إلى الأسواق ، اختفت في ظرف ساعة ، وإذا عرضت محلات (أروزدي باك) أي شيء ، اختفى هذا الشيء تماما في ساعة . وهناك موضة جديدة في بغداد اسمها (المجمدة) ، وأنت لا تملك مجمدة ، فأنت لست عراقيا ، مع أنها بلاد زراعية ، والأشياء متوافرة فيها على مدار السنة ، وكل شيء حاضر وموجود ويمكن زراعته حتى في الحدائق . والعراقي يشتري دون رغبة في الشراء ، ويشترى لأن الفلوس حاضرة والشيء موجود .

ومائدة العراقي دسمة ، وهو أيضا كريم ، وستجد عليها كل أنواع الطيور واللحوم والأسماك ، ولكن عدوى الوحيد في العراق هو (الكبة) . والكبة هي الطعام الوطني في العراق . والعبد لله وإن كان عراقيا بالمزاج ، إلا أنه لست عراقيا بالمعدة . وأجمل شيء في بغداد هو المطاعم الصغيرة المنتشرة على عربات اليد في شوارع المدينة ، وأجمل منها زبائننا الذين يترددون عليها كل يوم . وستجد من بينهم شعراء وأدباء وفنانين ، لهم في دنيا الفن صيت ، ورجال أعمال ورجال طريق ، ولا أحد منهم يستنكف الوقوف على الرصيف ليتناول طعام العشاء . عندما نزلت بغداد أول مرة ، قادني عبد الرحمن الخميسي إلى مطعم صغير في (الكرادة) ، وهتفت وأنا التهم الطعام كالغول : « يامرحبا

بغداد » . ولكن على بلوط قادني في مرة أخرى إلى مطعم آخر ، وجعلني أبكي على العمر الذي انقضى قبل أن أمضي إلى هذا اللحم . أغرب شيء أن الولد الذي يشوى اللحم قال لي ذات مرة: لقد عرفت الرجل الذي كان معك ، إنه على بلوط رئيس تحرير (الدستور) . لقد رأيت صورته في إحدى المجلات ، ولم أكن أعرف أنه هو الشخص الذي اعتاد أن يأتي إلى هنا كلما جاء لزيارة بغداد . ومرة أخرى ضحك الولد وهو يقف خلف النار ، وقال وهو يغمز بعينه : أنت محمود السعدني . أنا رأيت صورتك وقرأت لك في (ألف باء) .

وهذه الحادثة تقودنا إلى ظاهرة عجيبة في بغداد ، وهي أن العراقيين مدمنون على القراءة ، وهم على معرفة بكل إنتاج الأدب العربي ، حتى هؤلاء الذين نستخف أحيانا بشأنهم ، أو نقل من قيمة إنتاجهم . والعراقي أيضا قارئ حساس جدا وغضوب جدا . فقد انهالت على العبد لله مرة عشرات الخطابات تعاتبني كلها على عبارة (العالم العربي) التي وردت لي في مجلة (ألف باء) : كيف تقول (العالم العربي) إذا كنت بالفعل تؤمن بالوحدة ؟ إن (العالم العربي) عبارة مبهمة كعبارة (العالم الغربي) . وعندما نقول عبارة (العالم الغربي) فهي تشمل شعوبا مختلفة وأمم شتى ، ولكن قد يجمع بينهم رباط واحد ، وهو أنهم جميعا من العالم الغربي ، ولكن العرب شيء آخر مختلف . وبلاد العرب اسمها (الوطن العربي) . لأنها بالفعل بلد واحد مزقه أعداء العرب لأمر في نفس يعقوب . وبعض الناس العاديين في العراق يحتفظون بكل أعداد (صباح الخير) في الخمسينيات والستينيات ، وبعضهم يحتفظ بأعداد (روز اليوسف) منذ أن ظهرت . والعجائز منهم يذكرون بالخير عمنا الدكتور زكي مبارك ، الذي عاش فترة طويلة في بغداد ، وتعلق قلبه ببلدي المريضة بالعراق . والحق أقول إنه كان للدكتور زكي مبارك فضل على أبناء جيلتي ، لأنه عرفنا بالعراق ، وجعلنا نعيش فترة صبايا المبكر في أجواء بلد علاء الدين والسندباد .

وإذا كنت تريد حقا معرفة العراق والغوص في أعماقه ، فاذهب إلى (الشواكة) و (علاوي الحلة) و (الشيخ معروف) . انك هناك ستكتشف

العراق الحقيقي ، وستتعرف على أعمق أعماق العراق . ولست أدري لماذا تذكرني تلك الأماكن بمصر أيام زمان . مصر الحلوة الطيبة السخية ، ومصر القديمة قبل أن يمسح وجهها أبطال الانفتاح ، وشوهوا روحها قرود الطبقة الجديدة . وستجد في الشواكة وعلاوى الحلة نماذج من أبناء البلد الطيبين . واحد منهم تعرف على ، وكان يعرف بطبيعته الأصيلة أنني هارب ولاجئ من مافيا الانفتاح . وأقسم الرجل ألف يمين ألا أبرح مكاني قبل أن نأكل معا عيشا وملحا . وكانت أكلته (مسجوف) أكلناها على رصيف الشارع في الشواكة .

ولكن ماذا عن ليلي المريضة في العراق ؟ وماذا جرى لها بعد عمنا الدكتور زكي مبارك ؟ هل مازالت مريضة ؟ أم أنها نهضت من فراش المرض بالسلامة وأصبحت آخر صحة وآخر جمال ؟ أنا شخصيا لما اطلعت على أحوالها هتفت : « يا عالم الواردة والشاردة ، احفظها من كل عين باردة » ! .

أوطان الآخريين !

وإذا كنت قد عشت في العراق ست سنوات، فالحق أقول إن هذه السنوات الست قد حفرت في نفسي علامات، وتركت في نفسي ندوب. وبالرغم من ذلك، فأنا مدين بالفضل لبغداد. فقد علمت أولادي، وتخرجوا في جامعاتها، ووفرت لأسرتي الاستقرار الذي كانت تتشده، وأيضاً عرفتني بغداد بشخصيات عربية لم تتح لي الظروف من قبل أن اتعرف عليها. وعلى رأس هؤلاء عمنا أمين الحافظ رئيس سوريا الأسبق، الذي دافع عن بيته عندما هاجمته قوات الانقلاب، بشكل أفضل مما دافع به البعض عن هضبة الجولان. وصديق آخر تعرفت عليه هو أخونا الدكتور عارف الكيالي، وهو عربي سوري ونموذج من الرجال أتمنى أن أرى مثله صورة العربي في كل مكان.

أما عبد الفتاح الزلط، الذي تعرفت عليه يوماً ما في حلب، وكنا وقتئذ في عنفوان الشباب، وكنا نحلم معاً بوطن عربي واحد وجيش عربي واحد،

ومجتمع عربى واحد يضح بالحرية والنضال والحياة. أخونا المناضل عبد الفتاح الزلط الذى التقيت به أخيراً فى بغداد، أنكرنى وأنكرته. لقد تغير كما تغيرت، وترك الزمان بصماته على وجه كل منا، وترك أثره على شعره فصار فى لون القطن، ولم يترك على شعري أثراً، لأنه لم يجد على فروة رأسى أى شعر! شئ واحد فقط جمعنا واتفقنا عليه، وهو الازدراء الكامل لما صارت عليه الحال فى الوطن العربى، والتشاؤم بالنسبة للمستقبل، والبكاء على أيام مضت، كنا نبكى فيها على ما نظن أنه اعوجاج، فصار انحرافاً، تلك الأيام غاية الاستقامة بالنسبة لما يحدث الآن فى عواصم العرب الكبرى. ضاقت بنا السبل، وضاقت بنا الحيل، ولم يعد أحد يدرى من أين؟ أو إلى أين؟.

أما رجال السياسة فى العراق، فقد جعلنى بعضهم أشعر بأن العالم جميل والدنيا بخير. نعيم حداد عضو مجلس قيادة الثورة، وشجرة الجميز الطيبة التى أظلمت فى لحظات الهجير القاسية. ومنيف الرزاز الذى كان أقرب المسئولين إلى نفسى وعقلى. وشفيق الكمالى رئيس اتحاد الأدباء، الذى ترجع صداقتى به إلى أيام قهوة محمد عبد الله بميدان الجيزة، والذى كان كالبلسم لجراحى، التى أحدثها فى جسمى وفى نفسى عشرات من الأرزقية الذين يشتغلون بالسياسة فى بغداد. والشاعر حميد سعيد ابن (ريف الحلة) صاحب النفس الصافية والضمير الحى، والذى كان ملاذى فى اللحظات التى أشرفت فيها على قتل نفسى. ونصيف عواد السياسى الفذ صاحب الأفق الواسع والنظرة المستقبلية، العربى الحقيقى، الذى يؤمن إيماناً لا يتزعزع بأن بعث أمة العرب لا يتحقق، إلا بأن يكون كل عربى حراً. والصحفى أمير الحلوى، الذى كان أول وجه التقيت به فى العراق، وكان نعم المدخل إلى بلد الرشيد والمأمون وأبى تمام. والمقدم أرشد ياور صدام حسين، الرجل الذى كان أشبه بفارس من فرسان العرب فى صدر الإسلام، آخر شهامة وكرم واستبسال.

وفى المقابل، كان هناك عشرات من الوحوش الكاسرة، تصوروا فى لحظة جنون وغرور أن اللاجئين السياسيين هم أسرى وقعوا فى أيديهم. وتصوروا

في لحظة طيش أنهم قادرون على إخضاع الجميع بإغرائهم، وبمحاولة تقزيمهم . على رأس هؤلاء، رجل مسئول، حجمه وشكله لا يرشحانه إلا لمنصب صبي في قهوة أو دلال في سوق. كان وجهه يشبه إلى حد كبير وجه ممثل كوميدى عربى مشهور، وكان هذا الشبه هو عقدة حياته. وكان يتصور أنه فيلسوف هذه الأمة ومبعوث العناية الإلهية لبعث هذه الأمة من رقادها الطويل. والحقيقة أنه كان أجهل من دابة، وكان الفشل هو رفيق دربه على طول الخط. اشتغل صحفياً فلم يحقق شيئاً. واشتغل كاتباً يكتب مقالات من نوع (الحنجورى المتهالك فى الشنجورى) فلم يقرأها أحد إلا أهل بيته، وبعض المنافقين من بطانته. واشتغل وزيراً فجعل من وزارته أضحوكة للجميع. هذا المسخ المشوه تصور أنه قادر على تنصيب نفسه أستاذاً للمتقنين والكتاب المصريين الذين لجأوا إلى العراق! ولقد نجح فى إخضاع البعض بفلوسه. وجن جنونه عندما قاومه البعض الآخر، فسلط زبانيته عليه، وانكشف من خلال سلوكه السلطوى، فإذا به لا يؤمن بشيء مما يردده، وإنما هو مجرد مستبد صغير، سيذهب فى النهاية إلى زبالة التاريخ.

وغير هذا الدعي، كان هناك عشرات من الخنافس الصغيرة، تصوروا فى لحظة جنون أن القومية هى أن يتولوا قيادة القوم. وتوهموا أن العروبة هى أن تركب فى عربتهم. واعتقدوا أن الاشتراكية هى أن تشترك معهم فى كتابة التقارير. خنافس حقيرة وعناكب سامة لها أسماء: (جبار) و(الدهش) و(باصى) و(أبو سعد).. وآخرون. والمؤسف حقاً أنه يوجد لهذه الخنافس شبيهه فى كل أجزاء الوطن العربى، فهناك جبار وباصى والدهش فى دمشق وفى طرابلس الغرب وفى تونس وفى الجزائر وفى عدن، وحتى فى القاهرة. والمؤسف أيضاً أن مصريين كثيرين مشوا فى ركابهم، وركبوا فى عربتهم، واشتركوا معهم فى تحرير التقارير، وأصبحوا من مليونيرات العصر وسكنوا لندن وروما وباريس! على رأس هؤلاء زعيم حزب الكهرباء، الذى أسس لحساب هؤلاء حزباً كهربائياً، ضم زوجته وخادمته ومهندساً كهربائياً فى حجم التيس، وولد أرزقى خرج من مصر بلا سبب، ولم يكن مطلوباً من السلطة

ولا مطارداً من البوليس.. خرج قاصداً بلاد العرب لهدف واحد ووحيد، هو الحصول على الفلوس بأى طريقة ومن أى طريق، وانهمك فى كتابة التقارير وتجنيد المصريين الذين يقصدون العراق من أجل لقمة العيش. وكان هؤلاء هم أعمدة الحزب.

وكانت مهمة حزب الكهرباء فى الحقيقة، هى اصطياذ الشباب المصرى وتهيئته وإعداده وتسليمه لجبار، ثم بعد ذلك لا أحد يعلم ما الذى يجرى لهم أو يجرى عليهم. ولكن الأكيد أن هؤلاء الشباب ضاعوا جميعاً بسبب المسافة البعيدة بين الشعارات والتطبيق، وبين الحلم والحقيقة. وبينما ضاع هؤلاء الشبان الصغار، أصبح رئيس حزب الكهرباء مليونيراً يشار إليه بالشيكات، وتحول الكهربائى وكيل الحزب إلى مليونير يشار إليه بالدولارات، أما الأرزقى إياه، فقد هبر هبرته وعاد إلى مسقط رأسه، ويتصرف الآن كواحد من ملوك الانفتاح! .

أيام مضت وأرجو ألا تعود، ليس بالنسبة للعبد لله فقط، ولكن بالنسبة إلى كل صاحب رأى، أو صاحب قضية، أو صاحب وجهة نظر. وإذا كنا قد فضحنا هؤلاء الخنافس وحفنة الأرزقية الذين خضعوا لهم مقابل أكياس الدنانير، فالأمانة تقتضينا أن نذكر بالخير الرجل العراقى الأول صدام حسين. والحق أقول إنه أنقذنى من برائن هؤلاء، وحمانى من بطشهم. ولقد حرصنى مرة على أن أقاوم هؤلاء بعنف، وأن أقف أمامهم بقوة، وقال قولا ماثوراً ما زلت أتذكره وسأظل أتذكره حتى آخر يوم من أيام العمر. قال: «ما عليك يا محمود من هؤلاء، فهؤلاء الصغار موجودون فى كل مكان على الأرض العربية، وعلينا أن نقاومهم فى كل مكان، لكنى نشق الطريق إلى المستقبل الذى نحلم به للأمة العربية».

والحق أقول، كان صدام ودوداً وعطوفاً، وكان يشعر بأنه مسئول عن كل من لجأ إلى العراق فى ظله. ولكن.. كم من هؤلاء استطاعوا الوصول إليه؟ ولقد كان العبد لله حسن الحظ، لأننى استطعت اختراق دفاعات هذه الخنافس،

واستطعت المرور من بين خنادقهم، وتمكنت فى النهاية من الوصول إليه. وبالرغم من ذلك لم تتوقف الحرب. أصدر صدام ذات مرة أمره بإعداد مسكن لأئق للعبد لله بعد أن قضيت خمسة أعوام أسكن فى بيت شبه مهجور، وبنام أفراد أسرتى على الأرض. ومع ذلك مرت خمسة أشهر ولم ينفذوا أمر الرجل. وعندما حملت متاعى وأوشكت على مغادرة العراق، نصحنى أحد الإخوة العراقيين بالألا اتسرع وأن اتصل بصدام أولاً. وتطوع الصديق العراقى وأبلغه بالأمر، وثار الرجل ثورة عارمة واستدعانى فى اليوم التالى، وفى اليوم الثالث كان كل شىء قد تم. ولم يقدر للعبد لله الحياة فى البيت الجديد إلا شهرين. فقد اضطررت إلى ترك العراق هارباً مصطحباً ابنى الوحيد معى، تاركاً أسرتى وحدها فى بغداد. والسبب أنهم بعد انتقالى إلى المنزل الجديد، تصوروا أننى انتصرت عليهم، فقرروا الانتقام. وبدأ الضغط يشتد، وعندما أحكموا الحصار، قررت أن أغادر العراق. وفاتحت الدكتور يحيى الجمل الذى كان فى زيارة خاطفة لبغداد فى الأمر، وأقرنى على ذلك، ثم أبلغت الأستاذ محمد صبرى مبدى أيضاً.

وعشت عشرة أشهر خارج العراق، متنقلاً بين لندن ودولة الإمارات. وكانت فترة من العذاب المتصل والأرق المستمر. فأنا فى الإمارات وأسرتى فى بغداد، ووطنى بينى وبينه حواجز دونها حواجز، وأهوال دونها أهوال. وفى النهاية تدخلت السماء لتضع حداً لآلامى وضياعى. وتولى حسنى مبارك أمر مصر، وكان لابد أن أعود. وعدت ولكن عن طريق بغداد. وكان لقائى مع صدام حسين قبل الرحيل هو مسك الختام. أما العناكب والخنافس، فقد دخلوا الشقوق بعد أن تأكدوا بأننى عائد إلى القاهرة.

وإذا كان لابد من كلمة تقال لشباب اليوم، فكلمتى لكم: احذروا مغادرة الأوطان، وتجنبوا اللجوء إلى أوطان الآخرين مهما كانت الشعارات براءة والكلام معسول. لأنك يا ولدى لن تستطيع ولن يسمح لك بأن تلعب سياسة على أرض الآخرين. وإذا لعبت فسيكون لحسابهم ولمصلحتهم، ولن تكون أكثر من

كاتب تقارير أو مخبر نشيط، أو فى أفضل الأحوال عضواً فى حزب
الكهرباء، تكتب التقارير وتجند الأفراد لحسابهم مقابل أكياس الدنانير!.

وتسألنى الآن يا ولدى: وما الحل؟ إذا تورط الإنسان فى عمل سياسى داخل
بلده، وفى غياب الديموقراطية، وفى ظل نظام يعتمد البطش والقمع والتقتيل؟
وجوابى هو كما قلت لك: تقدم إلى السجن فى بلدك، أو تعلق بحبال المشنقة فى
مسقط رأسك. هذا أفضل وأشرف مما سوف تلاقىه فى بلاد الآخرين. وآه من
الضباع وخيبة الأمل فى بلاد الآخرين!!.

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٨ / ٣٥٧٧

ابن عطوطة !

ولكن عمنا ابن بطوطة كان اسمه هو عيبه ، فبطوطة من البط ، والبط طائر لا يطير ! شديد الكسل شديد الوحش ، غاية رحلته لفة فى بحيرة ، أو نزهة فى بركة ، أو بلبطة فى ترعة حسب الأحوال والتساهيل .

ولذلك أطلقت على نفسى لقب ابن عطوطة على وزن ابن بطوطة باعتبار أن كلا منا له رحلات وجولات وسفريات على اختلاف المكان والزمان .

أنا إذن ابن عطوطة ، وهى من العط ، والانسان يعط حتى يزهق ، وأحيانا حتى يغمى عليه .

محمود السعدنى



مركز الاهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الاهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الاهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الاهرام التجارية